سباق نحو الله

بقلم

د/ أحمد بن صالح الغيث

عضو هيئة التدريس بمعهد الدراسات العليا للدعوة

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الربانية

إحدى خصائص الدعوة الإسلامية

أهمية الموضوع :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .... أما بعد:

فمن المعلوم أن الهداية قسمان :

١- هداية توفيق وإلهام .

٢- هداية إرشاد وبيان .

أما الأولى فهي بيد الله عز وجل وليست بيد أحد من البشر مهما علا كعبه أو عظمت مكانته قال الله عز وجل " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ"(١)

وأما الثانية فهي التي بيد الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى وعلى رأسهم رسول الهدَى ﷺ قال الله تعالى " وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(٢)

وعلى الدعاة أن يبذلوا قصارى جهدهم في تبليغ هذه الدعوة على أحسن وجه وبالشكل المناسب

---

(١) سورة القصص آية ٥٦

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

ومن أساليب الدعوة إلى الله تعالى بيان ما يختص به الإسلام من محاسن لا توجد في غيره من المذاهب والأديان فهي جائرة في عقائدها وسائر شؤونها .

ومن هذه الخصائص الحسنة " الربانية " بل هي أم الخصائص وأساسها ، فمنها انبثقت ومنها تستمد

إن مما يميز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان والمذاهب أنه من عند الرب سبحانه وتعالي لم تشبه شائبة تحريف ولم تمتد إليه يد بالنقص وإثبات هذا الاختصاص وما يتفرع منه هو موضوع بحثنا نسأل الله تعالى الإخلاص والتوفيق

مفردات عنوان البحث :

الربانية : مصدر صناعي[٣] منسوب إلي الرب سبحانه وتعالى[٤] زيدت فيه الألف والنون للمبالغة [٥]

الربَّاني : المتأله العارف بالله عز وجل[٦]

وهو العالم الراسخ في العلم والدين[٧] أو العالم العامل المعلمِّ[٨]

ومن خلال ما تقدم يظهر أن المراد بالرباني هو العالم وثيق الصلة بالله تعالى

---

(٣) المصدر الصناعي هو أن يزاد على اللفظ ياء مشددة وتاء تأنيث كالحرية والوطنية [شذا العرف في فن الصرف ص . ٥]

(٤) الخصائص العامة للإسلام ، د يوسف القرضاوي ص٩ مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، بيروت

(٥) فتح القدير ، محمد بن على الشوكاني ٣٥٥/١ ، دار الفكر

(٦) القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ٢٠٦/١ ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ،١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، بيروت

(٧) تاج العروس من جواهر القاموس للإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي ٥/٢ دراسة وتحقيق : علي شيري ، دار الفكر ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م

(٨) تاج العروس للزبيدي ٥/٢

قال الله تعالى " مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ"(٩)

قال ابن جرير الطبري : أي ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يدعو الناس إلي عبادة نفسه دون الله وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة ولكنه إذا آتاه الله ذلك فإنما يدعوهم إلى العلم بالله ويحدوهم على معرفة شرائع دينية وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمر الله ونهيه وأئمة في طاعته وعبادته بكونهم معلمي الناس الكتاب وبكونهم دارسيه(١٠)

وقال الشوكاني : " الرباني : العالم بدين الرب القوي التمسك بطاعة الله تعالي"(١١)

قال ابن القيم " إن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويُعلِّمه ، فمن علم وعمل وعلَّم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السموات"(١٢)

قال ابن الإعرابي : لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالما معلما عاملا (١٣)

قال ابن سعدي : الربانيين أي العلماء والعاملين المعلمين(١٤)

---

(٩) سورة آل عمران آية ٧٩

(١٠) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل أي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٥٢٤/٥ ، تحقيق : عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ط١ ، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م ، الرياض

(١١) فتح القدير ،الشوكاني ٣٥٥/١

(١٢) عن فضل الدعوة إلى الله تعالى ، د فضل إلهي ، إدارة ترجمان الإسلام ، ١٤٢٠ هـ ، الرياض

(١٣) فتح الباري ، ابن حجر ١/ ١٦٢ ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، رئاسة إدارة البحوث العملية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية .

خصائص : "خصّه بالشئ يخُصّه خَصًّا وخُصوصا وخَصُوصِيّة وخُصُوصيّة والفتح أفصح وخصِّيصي وخصّصَه واختصّه : أفرده به دون غيره[١٥]

الدعوة لغة :

لكلمة الدعوة عدد من المعاني منها الطلب والنداء والحث والسؤال والاستمالة[١٦]

الدعوة في الاصطلاح :

إذا أطلق مصطلح الدعوة فإنه يراد به معنيان : الأول يقصد به الإسلام نفسه ، والثاني يطلق ويراد به النشر والبلاغ[١٧]

ومن تعريفاتها في الإطلاق الأول " الإسلام " ما يلي : الدعوة إلى الله دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعا ، تجدد على يد محمد ﷺ خاتم النبيين كاملا وافيا لصلاح الدين والآخرة[١٨]

ومن تعريفاتها في الإطلاق الثاني : الدعوة إلي الله " فن يبحث في الكيفيات المناسبة التي نجذب بها الآخرين إلي الإسلام أو يحافظ على دينهم بواسطتها"[١٩]

---

(١٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٢٩٤/٢ تحقيق محمد زهري النجار ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية

(١٥) لسان العرب ، ابن منظور ٢٤/٧ ، دار صادر، ط٣ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م ، بيروت

(١٦) لسان العرب لأبن منظور ٢٧٥/١٤ ، تاج العروس للزبيدي ١٢٦/١٠الصحاح للجوهري ٢٣٣٦/٦ دار العلم للملايين ١٣٩٩هـ ، مختار الصحاح ،الرازي ص ٨٦، دار الكتاب العربي ،١٩٦٧م/ بيروت
المعجم الوسيط لابراهيم مصطفي وآخرون ٢٨٦/١

(١٧) أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة ، د حمد العمار ص ٢٠ – ٢١ ، دار اشبيليا ، ط١ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م

الرياض . المدخل إلي علم الدعوة ، د . محمد أبو الفتح البيانوني ص١٨ ، مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م ، بيروت

(١٨) الدعوة الإسلامية " دعوة عالمية " ، محمد الراوي ص٣٩ ، مكتبة الرشد ، ط٣ ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، الرياض .

(١٩) الدعوة والإنسان ، د . عبد الله الشاذلي ص ٣٩ . المكتبة القومية الحديثة ط١ ، طنطا .

وعندما نقول أن الربانية خاصية من خصائص الإسلام نبين أنها من الخصائص السامقة التي نعتز بها ونفتخر، كيف لا وهو الدين الحق من عند رب العالمين ، يقنع العقول المتلهفة إلي الحقيقة ويروي ظمأ العاطفة الجياشة، فهو دين يجمع بين العقل والعاطفة .

ونحن إذ نقول هذا الكلام لا ننساق وراء عواطفنا باعتبارنا مسلمين وإنما نقوله لأنه

الحقيقة الناصعة والنور الوضاء الذي ينير دروب السائرين ويهدي الحيارى الضائعين

وهذا الكلام يستدعي مناقشة ما يضاد الإيمان أولا وهو الإلحاد ثم مناقشة الأديان الأخرى وإبراز أنها ليست ربانية خالصة .

وبهذا يكون أخذ المسلم لدينه عن بصيرة وفهم قائما على الأدلة، وبهذا يرسخ في قلبه . أما إن كان إيمانه تلقاه من آبائه ومجتمعه دون أن يعرف أدلته وحججه فيخشى عليه من الفتن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى " فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون..... هؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم يُنْعم عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق"(٢٠)

ونبدأ بمناقشة الإلحاد

الإلحاد مذهب منحرف بشع ، فواحشه كثيرة ومن أبرز ذلك :

---

(٢٠) الإيمان ، ابن تيمية ص ٢٣٢ ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ، ١٤٠٣هـ

أولا : الإلحاد يصادم الفطرة :

إن كثيراً من المعارف ولدت مع الإنسان فهي تنبع منه وليست بخارجة عنه فمن ذلك أنه يحس ويشعر شعورا يغمره بأن فوق الكون خالقا له يهيمن عليه ويدبر كل أمر فيه ، يرجى ويخشى ويعظم ويقصد وهذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها

قال الله تعالى: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"(٢١)

وتفسير الفطرة بالإسلام هو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل(٢٢)

وقال تعالى :" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ"(٢٣)

وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل:(إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم(٢٤) عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)(٢٥)

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة(٢٦) جمعاء هل تحسون فيها

---

(٢١) سورة الروم آية ٣٠

(٢٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي م٧ ج١٤ /٢٥ ، المكتبة العربية ، ١٣٨٧هـ ، القاهرة

(٢٣) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٢٤)فاجتالتهم : أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل [هامش صحيح مسلم ٢١٩٧/٣]

(٢٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٣

(٢٦) كما تنتج البهيمة بهيمة : معناه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء : أي مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها ، جدعاء : وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ومعناه أن البهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها وإنما يحدث فيها الجدع النقص بعد ولادتها [هامش صحيح مسلم ٢٠٤٧/٣]

من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا....)[٢٧]،[٢٨] ونلاحظ أنه في الحديث لم يذكر ويسلمانه لأن الإسلام من الفطرة وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث : هي فطرة الإسلام وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)[٢٩] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة فإن حقيقة الإسلام أن يستسلم لله لا لغيره)[٣٠] ويقول أيضا في مقام آخر : (إن أصل العلم الإلهي فطري ضروري وأنه أشد رسوخا في النفس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا إن الجسم لا يكون في مكانين)[٣١]

ويقول أيضا : (فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له ، تعبده لا تشرك به شيئا ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل)[٣٢]

وقد عبر عن هذه الفطرة أحد العارفين بقوله : (عرفت الأشياء بربي ولم أعرف ربي بالأشياء)[٣٣] وقال بعضهم : (هو الدليل لي على كل شئ)[٣٤]

---

(٢٧) سورة الروم آية ٣٠

(٢٨) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ٢٤٥/٣ ، رقم الحديث ١٣٥٨ . وأخرجه مسلم في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٢٠٤٧/٣ ، رقم الحديث ٢٦٥٨.

(٢٩) سورة الأعراف جزء من آية ١٧٢

(٣٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ٢٤٥/٤

(٣١) المصدر السابق ١٥/٢ - ١٦

(٣٢) الحسنة والسيئة ، ابن تيمية ص٦٦ ، تحقيق وتقديم : د . محمد غازي ، مطبعة المدني ، القاهرة .

(٣٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ١٨/٢ .

(٣٤) المصدر السابق ١٨/٢

وسئل ذو النون المصري بماذا عرفت ربك ؟ فقال عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي[٣٥]

ولما كان أصل الإيمان أمرا فطريا اتجه الجميع للعبادة لهذه الفطرة وإن كان بعضهم انحرف عن الهدى فعبد غير الله أو أشرك معه[٣٦]

وهو ما اتفق عليه الباحثون في الأديان بأن الشعور الديني لم يفارق أية أمة أو جماعة مرت بحقب التاريخ المختلفة[٣٧]

ويقول الفيلسوف هنري برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعة إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة)[٣٨]

ويؤكد هذا الشيخ عفيق طبارة فيقول : (إن الدراسات الدينية كشفت عن أمور كثيرة جديرة بإمعان النظر وهي : إن التدين صفة عامة لجميع البشر قديمهم وحديثهم فلم يعثر على أمة لا دين لها)[٣٩]

وفي كتاب الإيمان والتقدم العلمي : (إن الله موجود على نحو بدهي في سرائر الناس وفي ضمائرهم)[٤٠]

---

(٣٥) هامش المصدر السابق ٢/٢

(٣٦) العلم والدين ، د كمال فضل السيد الخليفة ص ١٤ ، دار جامعة الخرطوم ط ١٩٩٥م ، السودان

(٣٧) الإيمان كما يصوره الكتاب والسنة ، د . علي عبد المنعم عبد الحميد ص٢٢ ، دار البحوث العلمية ، ط١، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م، الكويت وانظر نحوه في الدين للدكتور محمد دراز ص ٥٨٣ ، دار القلم ، الكويت

(٣٨) وجود الله ، د، يوسف القرضاوي ص٢٤ ، مكتبة وهبة ، ط٣ ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م ، القاهرة .

(٣٩) روح الدين الإسلامي ، عفيف عبد الفتاح طبارة ص ٨٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢٧ ، ١٩٨٨م .

(٤٠) الإيمان والتقدم العلمي ، د. هاني رزق والدكتور خالص جلبي ، دار الفكر ، دمشق ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م .

فالدين من وجهة النظر الإسلامية لا يعد ظاهرة اجتماعية أوجدها الإنسان وإنما هو طبيعة فيه(٤١)

وها هو ستالين الذي حكم روسيا بشدة وبطش نحوا من ثلاثين عاما وقتل مئات الألوف من مخالفيه لا يستطيع أن يزيل الفطرة من قلب ابنته سفيتلانا مع أنها ولدت في بيته وتربت على يديه لكنها مع كل ذلك آمنت بالله تعالى ثم أعلنت إيمانها حين تيسر لها الخروج من بلادها

قالت : "غير أني بعد أن شببت عن الطوق دخل في قلبي أنه يستحيل أن يعيش الإنسان دون الشعور ولو في قلبه بوجود إله يحيى ويميت ويهيمن على كل شئ في الوجود ، ولقد توصلت إلي هذه العقيدة بدون أي إرشاد أو عظة من أي شخص"(٤٢)
إن الملحد عندما ينكر وجود الله عز وجل يصادم هذه الفطرة التي فطره الله عليها ولذلك فهو يحس بالشقاء والضياع والضنك كما قال الله تعالي (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)(٤٣)

قال ابن القيم :(فالمعرض عنه سبحانه وتعالى له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة)(٤٤)

---

(٤١) العقل والإيمان في الإسلام ، د. صابر طعيمة ص٩٥ ، دار الجيل ، ط١ ، ١٣٩٩هـ ،١٩٧٩مـ ، بيروت .

(٤٢) أركان الإيمان ، وهبي سليمان غاوجي الألباني ص١١٣ ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ

(٤٣) - سورة طه بعض آية ١٢٤

(٤٤) - الجواب الكافي ، ابن القيم ص ١٤١ ، المطبعة السلفية ، ط٣ ،١٤٠٠هـ

إن الملحد مع أنه يرى أن وراء كل مخلوق أو مصنوع حكمة خلق من أجلها ، بل إنه حين يتعلم ويتفكر يعلم أن أجزاء جسمه لها حكمة ولكن مع إنكاره للخالق الحكيم يؤدي إلى الشعور بأن حياته كلها عبث وضياع لا معنى لها ومن ثم يعيش في قلق دائم وتسخط على الوجود وهذا الاضطراب النفسي سبَّب مشكلة كبيرة يواجهها اليوم العلماء والنفسيون(٤٥)

يقول الدكتور كارل يونج أعظم الأطباء النفسيين في هذا الجيل بأمريكا " استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف الشعوب المتحضرة وعالجت مئات المرضى فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر – أي الخامسة والثلاثين أو نحوها – لا ترجع في أساسها إلى افتقادهم الإيمان وخروجهم على تعاليم الدين " ويصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض لأنه حرم سكينة النفس التي يجلبها الدين ولم يبرأ واحد من هؤلاء إلا حين استعاد إيمانه واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة(٤٦)

وإذا نظرنا إلي المجتمع المكون من الملحدين وجدنا أفراده بسبب كفرهم بالله والجزاء في اليوم الآخر يتسابقون إلى تحقيق رغباتهم وشهواتهم فلا يردهم ضمير ولا يمنعهم شئ ومن هنا تنشأ الصراعات بين أفراد المجتمع وجماعاته وطبقاته والنتيجة الدمار والخراب لكيان المجتمع(٤٧).

ثانيا : مخالفة الإلحاد للعقل

---

(٤٥) كتاب التوحيد ، عبد المجيد الزنداني ٧/٣ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ط١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م

(٤٦) بعض أسباب الإلحاد وأثر الإيمان بالله تعالى ص٣٩ ، عبد الحليم أحمدي ، مكتبة المنار الإسلامية .

(٤٧) كتاب التوحيد ، عبد المجيد الزنداني ٩/٣

إن الملحد إذا أنكر الله عز وجل مضطر لأن يقول إن الأشياء التي نراها إما :

١- أنها جاءت من العدم المحض

٢- أو أنها هي التي خلقت نفسها

والعقل يقول : يستحيل أن يأتي الشئ من اللاشئ أو من العدم لأن العدم عاجز عن إيجاد نفسه فهو عن إيجاد غيره من باب أولى .

كما يقول العقل : باستحالة خلق الشئ نفسه .

كيف يخلق الشئ نفسه ؟

إنه لكي يَخْلقُ لابد أن يكون موجودا ، ولكن إذا كان موجودا فقد خُلق وانتهي .

ولكي يُخْلَق لابد ان يكون غير موجود ، وإذا كان غير موجود فكيف يقوم بعلمية الخلق .

فعبارة "خَلَقَ الشئُ نفسَه " هي إذا عبارة متناقضة ؛ تفترض وجود الشئ وعدمه في الوقت نفسه .

قال تعالى في تقرير هذا الدليل العقلي : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)[٤٨]

قال الإمام ابن كثير_رحمه الله تعالى: (أي أوجدوا من غير موجد ، أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ لا هذا ولا ذاك بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا)[٤٩]

---

(٤٨) سورة الطور آية ٣٥

(٤٩) مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق : محمد الصابوني ٣٩٣/٣ ، دار القرآن الكريم ، ط٤ ، ١٤٠١هـ ، بيروت

ويحكى عن أبي حنيفة – رحمه الله تعالى : أن قوما من أهل الكلام أرادو البحث معه في تقرير توحيد الربوبية فقال لهم : أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة ، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسي بنفسها وتفرغ وترجع ، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد ؟!

فقالوا هذا محال لا يمكن أبداً .

فقال لهم : إذا كان هذا محال في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله ؟![٥٠]

والإمام أبو حنيفة في مثاله هذا يشير إلى أن الإحكام التام في الخلق كله ، يجعل العقل يحكم باستحالة صدور ذلك من غير خالق حكيم عليم مدبر له .

ولذلك نجد القرآن الكريم دائما يلفت أنظارنا إلى ما حولنا وإلى أنفسنا ليقرر وجود الله عز وجل واستحقاقه للعبادة :

قال الله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٥١]

وقال: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)[٥٢]

---

(٥٠) شرح الطحاوية ' على بن على بن محمد بن أبي العز الحنفي ص٢٩ ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط٢، ١٤٠٠هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(٥١) سورة البقرة آية ١٦٣، ١٦٤

(٥٢) سورة الروم آية ٢٢

قال الإمام ابن كثير_رحمه الله :(ومن آياته الدالة على قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأوديه وبحار وقفار وحيوان وأشجار .....)[٥٣]

وقال العلامة ابن سعدي_رحمه الله : " وكذلك في اختلاف ألسنتكم وألوانكم على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ومخارج الحروف واحدة ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ولا لونين متشابهين من كل وجه"[٥٤]

وجميع الناس كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل لابد أن يفارقه بشئ فكل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى[٥٥]

إن الإلحاد يصادم الإيمان بالله تعالى الخالق لكل شئ والأدلة على وجود الخالق سبحانه كثيرة جدا بحيث لا يمكن حصرها"[٥٦]

ومما يدل على الإتقان في هذا الخلق أن الشمس لو كانت أقرب من الأرض ولو بمسافة يسيرة فستصبح الأرض حارة جدا ومحرقة بحيث يستحيل وجود الحياة وبقاؤها عليها ولو كانت الشمس أكثر بعدا من مسافتها الحالية فستصبح أرضنا باردة جدا ويكتنفها الصقيع الذي يمنع الحياة أن تبقى أو تنمو وتستمر على سطح الأرض[٥٧]

---

(٥٣) مختصر تفسير ابن كثير ، محمد الصابوني ٥١/٣

(٥٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن السعدي ١٢٠/٦ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ،١٤٠٤،الرياض

(٥٥) مختصر تفسير ابن كثير ، محمد الصابوني ٥١/٣

(٥٦) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ، د.فاضل صالح السامرائي ، مكتبة القدس ، بغداد ، مكتبة البشائر ،عمان،ط٢ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م

(٥٧) فطرة الله في خلقه ، عدنان السبيعي ص٢٨ ، دار الفارابي ، دمشق ط١ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م . العلم يدعو للإيمان ،كريس مورسيون ص ٥٤ ، ٥٥ ، ترجمة : محمود الفلكي ، ط١ ، ١٩٨٦ م ، دار القلم ، بيروت

ولو قل معدل دوران الأرض على محورها عن سرعته لطال النهار بما قد يؤثر في النباتات والأحياء صيفا . وطال الليل بما قد تتجمد بسببه السوائل شتاء وبذلك تقل مسببات الحياة[٥٨]

ولقد اجتمعت ألوف العوامل بل ملايين العوامل لتجعل الأرض صالحة للحياة[٥٩]

إن من يقرأ في علم الفلك يجد الآيات الباهرات لقدرة الله تعالى وإحكامه لخلقه فهناك المجموعة الشمسية التي هي الشمس وما يدور حولها من كواكب كعطارد والزهرة والأرض وغيرها وكل منها يدور في فلك محدود ولا يصطدم بعضها ببعض لإحكام الله لخلقه وهناك المجرة وهي مجموعة كبيرة جدا من النجوم وهي هذه الأجسام الملتهبة المضيئة التي نراها بالليل تملأ السماء وهذه النجوم بعضها أصغر من الشمس ومنها ما هو أعظم من حجم شمسنا[٦٠] (بمائة مليون مرة) ،والسماء مليئة بالمجرات فقد يكون هناك (بليون) من المجرات الأخرى ولا تزال تظهر للفلكيين مجرات جديدة كلما تقدم العلم.

أفلا تشهد هذه الملايين الملايين الملايين من الكواكب والنجوم والمجرات السابحة في مداراتها المنتظمة المقدرة المحكمة في سرعتها وأحجامها وأوزانها بوجود الخالق العظيم القوي العزيز العليم الحكيم[٦١]

---

(٥٨) الله والعلم الحديث ، عبد الرازق نوفل ص٢١ ، مؤسسة دار الشعب القاهرة

(٥٩) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ' د. فاضل السامرائي ص٢٧

(٦٠) الشمس أكبر من الأرض بمقدار (١٣٠،٥٠٠) مرة [التوحيد ، للزنداني ٣٥/٣]

(٦١) التوحيد ، عبد المجيد الزنداني ٣٣/٣ – ٣٨ وانظر روح الدين الإسلامي ، عفيفي عبد الفتاح طبّاره ص٦٨

يقول ميريت ستانلى كونجدن[١] : إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته . وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار قدرة الله وعظمته .... إننا نرى آيات الله في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود[٢]

الرد على القائلين بالصدفة

إن القول بأن الكون خلق بالصدفة من المستحيلات فإننا نرى استحالة قيام الصدفة بأشياء يسيرة جدا لا يمكن مقارنتها بهذا الكون الفسيح المترامي الأطراف الدقيق في تكوينه ولنضرب لذلك مثلا . لو أن شخصا جمع مربعات كثيرة من الورق مكتوب على كل واحدة حرفا من حروف الهجاء ثم أغلقها وبدأ يأخذ منها عشوائيا وهي مغلقة ولا يعلم ما الحرف الموجود بداخلها بحيث يكون ديوانا شعريا أليس هذا من المستحيلات فكيف بهذا الكون كله .

يقول البروفيسور " ايدوين كونكلين : " إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي في مطبعة[٣]

مطبعة[٣]

ويمكننا أن نفهم شيئا عن قانون الصدفة من المثال التالي :

---

(١) عالم طبيعي وفيلسوف [الله يتجلى في عصر العلم ص٢٤]

(٢) الله يتجلي في عصر العلم ، نخبة من العلماء الأمريكيين ، أشرف على تحريره : جون كلوفر مونسما ، ترجمة : د. الدمرداش عبد المجيد سرحان ، راجعه وعلق عليه: د.محمد جمال الدين العنزي ، دار التربية

(٣) سفينة الإيمان ، محمد الصالح الصديق ص٢٢ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان ص٦٦ ، ترجمة : ظفر الإسلام خان ، مراجعة مراجعة وتقديم : د.عبد الصبور شاهين ، المختار الإسلامي ، ط٦ ، ١٩٧٦م ، القاهرة .

لو تناولت عشرة دراهم وكتبت عليها الأعداد من ١ إلى ١٠ ثم رميتها في جيبك وخلطتها جيدا ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه[١] في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة ،وإمكان أن نتناول الدرهمين (١ ، ٢) بالترتيب هو واحد في المائة ، وإمكان أن تخرج الدراهم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف ..... حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات .

وهذا المثال ضربه العالم الأمريكي الشهير " كريسي موريس " ثم قال : إن الهدف من إثارة مسألة يسيرة كهذه ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد " الوقائع " بنسبة كبيرة جدا في مقابل " الصدفة "[١]

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق ، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم ..... ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة وصرنا قادرين بإذن الله تعالى على أن نميز بين ما يمكن حدوثه بطريق المصادفة وما لا يمكن وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان . ولننظر ما الذي يمكن أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة .

" إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي : (الكربون والأيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت) ويبلغ عدد الذرات في الجزىء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذ رة .

---

(١) الإسلام يتحدى ، وحيد خان ص ٦٧

وإن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزئ بروتين واحد إلا بنسبة (١٦٠١٠) أي بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزئ واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. ويتطلب تكوين هذا الجزئ على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات " قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (٢٤٣١٠) إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينيه فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى غير التي تتآلف بها تصير غير صالحة للحياة ، بل تصير في بعض الأحيان سموما . وقد حسب العالم الإنجليزي ج.ب ليثز الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (٤٨١٠) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحداً ."

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندرك من كنهه شئ . إنه الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيْ البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة فبناه وصوره وأعطاه الحياة[١]

وبعد مناقشة الإلحاد وبيان بطلانه للأسباب السابقة الذكر وغيرها من الأدلة الكثيرة نأتي إلى مناقشة الأديان ويمكن تقسيمها من حيث مصدرها إلى قسمين :

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الأمريكيين ص١٧- ١٨

١-أديان من الله عز وجل

٢-أديان من البشر

أما الدين البشري فلكوننا نريد أن تكون معلوماتنا عن الخالق سبحانه وتعالى معلومات صحيحة موثقة فلابد أن نأخذها عن الأديان التي من عند الله تعالى ؛ لأنه إذا كانت المسألة آراء وظنون فما الذي يجعلنا نقبل آراء غيرنا وظنونه ونقدمها على آرائنا وظنوننا.

وإذا استبعدنا الأديان البشرية لما سبق بقي النظر في الأديان التي تنسب إلى الله عز وجل ويمكن تقسيمها إلى قسمين .

١- دين سلم من النسخ والتحريف وهو الإسلام

٢- أديان لم تسلم من النسخ والتحريف وهي اليهودية والنصرانية

أما اليهودية والنصرانية فإن الإنسان لا يمكن أن يقبل بهما لسببين :

أحدهما : أنهما منسوختان بالإسلام

الثاني: أنهما قد دخلهما التحريف والتزييف

وإليك تفصيل لهذين السببين :

الأول : كونهما منسوختان : فقد نسخ الإسلام رسالة موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - حيث أن رسالة محمد ﷺ للعالمين أجمع بما فيهم اليهود والنصارى وفي هذا

يقول الله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"[١]

ويقول : " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا"[٢]

ويقول : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا "[٣]

كما يبين الرسول محمد ﷺ أن رسالته ناسخة للأديان السابقة

فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[٤]

فقد رتب على علم اليهودي و النصراني بالإسلام و عدم إيمانه به دخول النار فدل على أن الدخول في الإسلام واجب يعاقب على تركه .

وقال صلى الله عليه وسلم " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي بعثت إلى الأحمر والأسود وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .... الحديث"[٥]

الثاني : تحريف اليهودية و النصرانية

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٨

(٣) سورة سبأ آية ٢٨

(٤) صحيح مسلم ٣٤/١ ، كتاب الإيمان ، تحقيق : محمد عبد الباقي ، ط٢ ، بيروت .

(٥) مسند الإمام أحمد ٣٠٤/٣ ، ط٢ ، بيروت .

وَكَل الله عز وجل حفظ التوراة والإنجيل إلى أهلها لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى لكنهم لم يقوموا بالحفظ فدخل إلى كتبهم التحريف و التزييف وسأحاول إلقاء الضوء المركز على ذلك .

أ- كتب اليهود

يؤمن اليهود على اختلاف فرقهم بأسفار " العهد القديم " ويقسمها علماء الأديان إلى أربع مجموعات(١)

وقد تعرضت كتب العهد القديم للدراسة والنقد من قبل بعض علماء اليهود والنصارى والمسلمين

فقد درس موضوع صحة نص العهد القديم ومدى جواز نسبته إلى موسى ومن ينسب إليهم – علماء يهود ونصارى كثيرون فقد شك كل من الحبر الغرناطي إبراهيم بن عزرا وابن جرشون في صحة نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى وفي صحة نسبة سفر يشوع إلى يشوع . وفي القرن الخامس عشر كشف الأسقف الأسباني توستاتوس بعض النصوص الموضوعة في العهد القديم ، كما أعلن بودنشتين سنة ١٥٢٠ م أن مؤلف الأسفار الخمسة مجهول

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الكتب المقدسة للدكتور يحي ربيع ص ١٩- ٢٢ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م وفي مقارنة الأديان بحوث ودراسات للدكتور محمد الشرقاوي ص ١٣-١٩ ، دار الجيل – بيروت مكتبة الزهراء ، القاهرة ، ط٢ ،١٤١٠هـ - ١٩٩٠م وما يذكر من أسماء كتب في هذه الجزئية فهو من كتب العهد القديم

أما النقد التاريخي للكتاب المقدس فلم ينشأ إلا في القرن السابع عشر على أيدي كل من : ريتشارد سيمون وجان استروك وباروخ سبينوزا وتتالت الدراسات التي تنقد " الكتاب المقدس"[١]

و سأسلط_إن شاء الله تعالى_ الضوء على دراسة أحد اليهود وهو الفيلسوف سبينوزا ونقده للعهد القديم .

يرى سبينوزا أن " المعرفة التاريخية للظروف الخاصة بكل أسفار الكتاب لا تتوفر لدينا في معظم الأحيان والواقع أننا نجهل الأشخاص الذين كتبوها أو نشك فيهم كما سأبين بالتفصيل فيما بعد"[٢]

وحيال هذا النقص الشديد في هذه المعلومات الضرورية عن أسفار الكتاب وواضعيها يضرب الفيلسوف سبينوزا صفحاً عن أية معلومات خارجية موضوعة ويحصر نفسه في الكتاب نفسه وما يمكن أن يقدم من معلومات لعدم ثقته في الأحبار وما يصدر عنهم[٣]

ومن ملاحظات سبينوزا على الأسفار الخمسة :

١- لا تتحدث الأسفار الخمسة عن موسى بضمير الغائب فحسب وإنما تعطي عنه شهادات عديدة لا يصح البتة أن يكون هو الذي أعطاها عن نفسه ومن ثم لا يسوغ قطعا أن يكون هو كاتبها ...وهذه الشهادات مثل :

---

(١) انظر ترجمة الدكتور حسن حنفي لرسالة سبينوزا في اللاهوت والسياسة ص١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤٤ نقلا عن : في مقارنة الأديان بحوث ودراسات ، د.محمد الشرقاوي ص٦٥ – ٦٦ هامش ٣

(٢) ترجمة حنفي لرسالة سبينوزا في اللاهوت والسياسة ص٢٥٥ عن : في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص٦٨

(٣) في مقارنة الأديان ، د الشرقاوي ص ٦٩

" تحدث الله مع موسى "

" وكان موسى رجلا حليما جدا أكثر من جميع الناس"[١]

" موسى رجل الله"[٢]

٢- أن الأسفار الحالية تروي أنه فاق جميع الأنبياء في بني إسرائيل الذين أتوا بعده

" ولم يقم من بعده نبي في إسرائيل كموسى الذي عرفه الرب وجها لوجه"[٣]

فهذه شهادة لم يكن من الممكن أن يدلي بها موسى نفسه أو شخصا أتى بعده مباشرة بل هذه شهادة شخص عاش بعده بقرون عديدة وقرأ عن أنبياء عديدين بعد موسى[٤]

٣- إن بعض الأماكن لم يطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى بل أطلق عليها أسماء عرفت بها بعده بوقت طويل إذ يقال في التوراة

إن إبراهيم تابع أعداءه حتى (دان)[٥] وهو اسم لم تأخذه المدينة التي تحمله إلا بعد موت يشوع بمدة طويلة ويشوع هو فتى موسى عليه السلام وخليفته[٦]

من هذه الملاحظات وغيرها يقرر سبينوزا قائلا :

---

(١) سفر العدد ٢٥ : ٣ عن في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص٧٧

(٢) سفر العدد ٣١ : ١٤ عن في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص٧٨

(٣) سفر التثنية ٣٤ : ١ عن في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص ٧٩

(٤) في مقارنة الأديان ، د . الشرقاوي ص ٧٩

(٥)سفر التكوين ١٤:١٤ عن في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص ٧٩

(٦) في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص ٧٩

" من هذه الملاحظات كلها يظهر واضحا وضوح النهار أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة بل كتبها شخص آخر عاش بعد موسى بقرون عديدة

ثم فحص بعض أسفار العهد القديم الأخرى و وصل إلى نتيجة ذلك قائلا : " وبذلك ننتهي إلى أن كل الأسفار التي عرضنا لها – حتى الآن – قد كتبها مؤلفون آخرون غير الذين تحمل هذه الأسفار أسماءهم"(١)

ويجانب دراسة اليهود للتوراة فقد درسها النصارى ومنهم الكاتب الفرنسي الدكتور موريس بوكاي الذي يقول : " لا يجوز النظر إلى الكتب المقدسة من خلال تجميلها بقيم نصطنعها لها بل ينبغي أن نختبرها موضوعيا . وهذا لا يستلزم فقط معرفة النصوص بل معرفة تاريخها أيضا . هذه المعرفة التي تسمح في الحقيقة بتكوين فكرة عن الظروف التي أدت إلى تحريفات النصوص على مر العصور على بطء وتكوين المجموعة التي بين أيدينا مع حذوفات وإضافات عديدة"(٢)

ثم يذكر نتيجة تطبيق هذه المفاهيم على دراسة العهد القديم فيقول : " هذه المفاهيم تجعل من الممكن أن نجد في العهد القديم نصوصا مختلفة في الرواية الواحدة ، وتضادات ، وأخطاء تاريخية ، ومستحيلات وتناقضات مع معطيات علمية قوبة الثبوت"(٣)

كما درس التوراة بعض علماء المسلمين ومنهم ابن حزم – رحمه الله تعالى – حيث قام بنقد التوراة من جهتين

---

(١) ترجمة حنفي لرسالة سبينوزا في اللاهوت والسياسة ص٢٧٦ عن في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص ٨٥

(٢)التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، ، موريس بوكاي ص٦٥ ، ترجمة : حسن خالد ، المكتب الإسلامي – بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

(٣) نفس المصدر ص ٦٥

١- من جهة ما احتوت عليه الأسفار من أغاليط وتناقضات لا يمكن تأويلهـــا " وفيمـــا يخبر عن الله تعالى ثم عن ملائكته ثم عن رسله من المناقضات الظـــاهرة والفـــواحش المضافة للأنبياء _عليهم السلام_ ولو لم يكن فيها إلا فصل واحد من الفصـــول التـــي ذكرنا لكان موجبا لكونها موضوعة محرفة مبدلة مكذوبة فكيف وهي سبعة وخمســـون فصلا من جملتها فصول يجمع الفصل الواحد منها سبع كذبات أو مناقضات فأقل..... فما ظنكم بمثل هذا العدد من الكذب والمناقضة في مقدار توراتهم وإنما هي مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق"[١]

٢- من جهة الظروف التي مرت بها التوراة هيأت المناخ المناسب لتحريفها وتبـــديلها وذلك من عدة جهات

أ- ما كان عليه ملوكهم وقضاتهم من حال سيئة فقد تناوله ابن حزم رحمه الله تعـــالى من إثر موت موسى عليه السلام إلى ولاية أول ملك لهم وهو "شاول" وبين أنهـــم فـــي هـــذه الأثناء ارتدوا سبع ردات فارقوا فيها الإيمان وأعلنوا عبادة الأصنام بقوا فـــي إحـــداها أربعين عاما "فتأملوا أي كتاب يبقى مع تمادي الكفر ورفض الإيمان هذه المدد الطوال في بلد صغير مقدار ثلاثة أيام في مثلها فقط ليس على دينهم واتباع كتابهم أحد علـــى ظهر الأرض غيرهم"[٢]

ثم تحدث عن تاريخ بني إسرائيل بعد الفترة السابقة وبين أنها هيأت المناخ للتحريـــف والتبديل[٣]

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم / ٢٨٥

(٢)المصدر السابق ، ابن حزم ١ / ٢٩٠

(٣) لمزيد التفصيل أنظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١ / ٢٩٠ وما بعدها

ومن جهة أخرى نبه ابن حزم – رحمه الله – إلى عدم تواتر التوراة عندهم بل ولا اشتهارها بينهم فهي عند شخص واحد منهم فقط حيث يقول " فاعلموا الآن أن التوراة لم تكن من أول دولتهم إلى انقضائها إلا عند الهاروني الكوهن الأكبر وحده في الهيكل فقط"[١]

ويبين ابن حزم _رحمه الله_ أن هؤلاء الكهنة الهارونيين قد وجد فيهم ما وجد في غيرهم من الكفر والفسق وعبادة الأوثان ..... ومن هذه صفته فلا يؤمن عليه تغيير ما ينفرد به وهذه كلها براهين أضوأ من الشمس على صحة تبديل توراتهم وتحريفها[٢]

و هذه بعض الأغلاط والتناقضات في العهد القديم :

أ- الأغلاط :

١- جاء في سفر الخروج أن إقامة بني إسرائيل في مصر كانت ثلاثا وأربعين سنة وهي في الحقيقة مائتان وخمس عشرة سنة وقد اعترف مفسرو العهد القديم بوقوع الخطأ في هذا الرقم[٣]

٢- جاء في الفاصلة الرابعة عشر من الإصحاح الثامن عشر من سفر يشوع في بيان حد بنيامين هكذا "وينحدر ويدور من قبال البحر" إلخ . فقوله من قبال البحر غلط لأنه ما كان في حدهم ساحل البحر ولا قربه واعترف المفسر (دوالي ورجردمينت) بكونه غلطاً[٤]

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٩٤

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ١/٣٠٠ - ٣٠١

(٣) اليهودية ، د أحمد شلبي ص ٢٦٦-٢٦٧ ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ، ط١٢ ، ١٩٩٧م

(٤) إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ص ١٣٦ ، تقديم وتحقيق وتعليق : د. أحمد السقا ، دار التراث العربي . ولمزيد من النماذج ارجع إلى اظهار الحق ص ١٣٥ - ١٥١

التناقضات :

١- جاء في التوراة " إن نوحا لما بلغ خمسمائة سنة ولد له " يافث وسام وحام " ثم ذكرت أن نوحا إذْ بلغ ستمائة سنة كان الطوفان ولسام يومئذ مائة سنة . وقالت بعد ذلك إن "سام بن نوح" لما كان ابن مائة سنة ولد "أرفخشاذ" لسنتين بعد الطوفان وهذا كذب فاحش لأنه إذا كان نوح حين ولد له "سام" ابن خمسمائة سنة وبعد مائة سنة كان الطوفان "فسام" حينئذ ابن مائة سنة وإذ ولد له بعد الطوفان بسنتين "أرفخشاذ" "فسام" كان إذ ولد له "أرفخشاذ" ابن مائة سنة وسنتين وفي نص توراتهم أنه كان ابن مائة سنة[١]

٢- في الإصحاح الثامن من سفر التكوين هكذا " واستقر الفلك في اليوم السابع والعشرين من الشهر السابع على جبال أرمينية" "والمياه كانت تذهب وتنقص إلى الشهر العاشر لأنه في الشهر العاشر في الأول من الشهر بانت رؤوس الجبال" فبين الفاصلتين اختلاف لأنه إذا ظهرت رؤوس الجبال في الشهر العاشر، فكيف استقرت السفينة في الشهر السابع على جبال أرمينية[٢]

النصرانية :

ما سبق ذكره من نقد موجه لكتب اليهود قبل قليل هو في الوقت ذاته موجه للنصرانية لأن كتبها تتكون من العهد القديم الذي يؤمن به اليهود ومن العهد الجديد الذي ينفرد به النصارى .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ، ١ /٢١٢. الكتب السماوية وشروطها وصحتها ، عبد الوهاب طويلة ص ٢٩٢ – ٢٩٣ دار القبلة – جدة ، مؤسسة علوم القرآن – بيروت ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

(٢) إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ص ١٠٨ ولمزيد من الأمثلة ارجع إليه ص ١٠٦ وما بعدها وإلى الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٢٠١/١ – ٢٨٥ وإلى الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف ، د . يحي ربيع ص ٢٢٥ - ٢٦٨

والعهد الجديد ليس ببعيد عن العهد القديم من حيث النقد إذ يمكن توجيه النقد لـــه مـــن ناحيتين : ١) نقد السند ٢) نقد المتن

وهذا توضيح مركز لكليهما

١- نقد السند : إن كتب النصارى لا تحظى بالسند المتصل فالجهالة تكتنف المـــؤلفين لها " فالغموض والنقص الشديد في المعلومات عن حياتهم وسيرتهم"[١] أمر واضح .

"فثمة كثير من العناصر المجهولة عن الكتّاب الذين لا يسعنا التحقق من شخصياتهم"[٢]

كما أن تدوين الكتب المقدسة لدى النصارى جاء متأخرا بزمن طويـــل عـــن عصـــر الأنبياء المنسوبة إليهم ولم يحدد العصر الذي دونت فيه تحديدا قاطعا[٣]

إن من أسباب فقدان السند عند النصارى هو ما " اتفقت المصادر شـــرقية وغربيـــة . دينية وغير دينية على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايـــا وكـــوارث جعلـــتهم يستخفون بديانتهم ويفرون بها أحيانا ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحيانا أخـــرى وهم في كلتا الحالتين لا شوكة لهم ولا قوة تحميهم وتحمي ديانتهم وكتبهم وإنـــه فـــي وسط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دونت أناجيلهم الأربعة التي يؤمنون بها ودونـــت رسائلهم"[٤]

---

(١) في مقارنة الأديان ، د. الشرقاوي ص ١٤٢ - ١٤٧

(٢)التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، موريس بوكاي ص ٦٧

(٣) الميزان في مقارنة الأديان ، محمد طهطاوي ص ٧٢ ، دار القلم – دمشق – الدار الشامية – بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

(٤) محاضرات في النصرانية ، محمد أبو زهرة ص ٣٦ ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية و الإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض ، ط ٤، ١٤٠٤ هـ

وقد كان علماء النصارى الفحول يعتذرون بهذا الأمر ويبينون أنه سبب فقد السند عندهم وفي هذا الصدد يقول رحمة الله الهندي _رحمه الله :" طلبنا مرارا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني و بينهم فقال : إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشر سنة "

ثم يبين رحمة الله أنه تفحص في كتب الإسناد لهم فما رأى فيها شيئا غير الظن والتخمين. والظن في هذا الموضوع لا يغني شيئا[١]

٢- نقد المتن

إن كتب النصارى مليئة بالتناقض والأخطاء التي تدل دلالة لا لبس فيها ولا ريب أنها لا يمكن أن تنسب إلى الوحي فمن المعلوم أن ما كان من عند الله لا يمكن أن يتطرق إليه الاختلاف أو الكذب وهذا الدكتور موريس بوكاي الكاتب الفرنسي المشهور يقول في هذا الصدد:

"إن روايات الأناجيل تثبت أولا وبالذات تضادات بارزة فلا يمكننا التصديق بوجود أمرين متناقضين ، ولا يمكننا قبول بعض ما لا يصدق ، كما لا يمكننا قبول تأكيدات تتجه إلى

مصادمة معطيات مثبته تماما من العلوم العصرية "[٢]

ويمكن إجمال انتقادات الطبيب (موريس بوكاي) للتوراة والإنجيل بأنه يوجد فيها :

---

(١) إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ص ٨٣

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، موريس بوكاي ص١٣٣

١- التناقض بين النصوص

٢- الأخطاء المخالفة للحقائق

٣- مصادمة معطيات مثبتة تماما من العلوم العصرية .

كما درس كتب النصارى علماء مسلمون حشدوا نماذج من الأخطاء والتناقضات[١] في كتبهم ومن هذه النماذج :

أ- الأخطاء :

١- في الفاصلة الثانية عشرة من الإصحاح الأول من إنجيل متى : أن زربابل ابن شألتئيل وهو غلط أيضا لأنه ابن فدايا وابن الأخ لشألتئيل كما جاء في الإصحاح الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام[٢]

٢- الفاصلة الثالثة من الإصحاح الرابع عشر من انجيل متى هكذا :

" فان هيرودوس كان قد أمسك يوحنا وأوثقه وطرحه في سجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه " وهذا غلط لأن اسم زوج هيروديا كان هيرودس أيضا لا فيلبس كما صرح يوسينوس في الباب الخامس من الكتاب الثامن عشر من تاريخه[٣]

ب- التناقضات :

---

(١) انظر مثلا إظهار الحق ص ١١٤ -١٣٥ و ص ١٥١-١٧٣،التوراة والانجيل والقرآن ،جعفر عتريس ص ٢٦١-٢٦٩ ، دار الهدى – بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م

(٢) إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ص ١٥٣

(٣) إظهار الحق رحمة الله الهندي ص ١٥٧

١- لاحظ الأب روجي أن عيد الفصح معين بشكل مختلف بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين في الأناجيل الثلاثة وفي الإنجيل الرابع :

- يوحنا يقول بوقوع هذا العشاء قبل عيد الفصح

- الأناجيل الأخرى تقول أنه حدث أثناء عيد الفصح نفسه[١]

٢- يعلم من الفاصلة العاشرة من الإصحاح العاشر من إنجيل متى والفاصلة الثالثة من الإصحاح التاسع من إنجيل لوقا أن عيسى عليه السلام لما أرسل الحواريين كان قد منعهم من أخذ العصا ويعلم من الفاصلة الثامنة من الإصحاح السادس من إنجيل مرقس أنه كان قد صرح لهم بأخذ العصا[٢]

صدق رسالة الإسلام :

مما تقدم يتبين أن كل المذاهب والأديان لا تتصف بالربانية ما عدا دين الإسلام الذي سيظهر لنا في الصفحات القادمة تمتعه بالربانية .

ولسنا نقول ذلك لأننا مسلمين فحسب بل لأن هذه هي الحقيقة الثابتة بالبرهان الواضح والصدق القائم على الأدلة فالإسلام دين رباني مصدره من عند الله عز وجل لم تشبه شائبة من التحريف أو النسخ وذلك بفضل الله تعالى ومنته وتكرمه بحفظه حيث يقول عز من قائل " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "[٣]

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن ، جعفر عتريس ص ٢٦١ ، دار الهادي – بيروت ط١ ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م وأنظر نماذج أخرى نفس المرجع ص٢٦١-٢٦٩

(٢) إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ص ٢٣

(٣) سورة الحجر آية ٩

وهذا الحفظ هو ما سنلقى عليه الضوء أولا ثم نتكلم ثانيا عن صدق الرسول ﷺ في رسالته وكون القرآن الكريم من عند الله عز وجل

أولا : اتصال السند

الإسلام في أساسه مكون من القرآن الكريم والسنة المطهرة وسنتحدث أولا عن القرآن الكريم ثم نتكلم عن السنة المطهرة .

١- القرآن الكريم

من مميزات القرآن الكريم وخصائصه التي ينفرد بها عن الكتب المقدسة التي سبقته توثيقه توثيقا متينا،وما ذلك إلا لأن الله تعالى تكفل بحفظه من التغيير والتبديل[١] حيث يقول " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[٢]

أما الكتب السابقة فقد وكل حفظها إلى علمائهم

قال الله تعالى :

"إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَااسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ"[٣]

قوله " بما استحفظوا من كتاب الله " أي بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل . قوله " وكانوا عليه شهداء " أي رقباء لئلا يبدل[٤]

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٣٠٨/٢ ، مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ١٦٨/٤

(٢) سورة الحجر آية ٩

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

(٤) الكشاف ، الزمخشري ٦١٥/١ ، دار المعرفة

لقد حفظ الله عز وجل كتابه القرآن الكريم بتيسير أسباب الحفظ له فقد كان الرسول ﷺ يتلقاه من جبريل عليه السلام وكان الرسول ﷺ يعالج من التنزيل شدة خشية نسيانه فكان يحرك به لسانه فتكفل الله له بجمع القرآن في صدره ثم قراءته له[١] وفي هذا يقول الله عز وجل " لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ "[٢]

" وكان من أسباب زيادة حفظ القرآن عند النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام كان يعرض القرآن عليه كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه "[٣]

وكان الرسول ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن ، كما كان رسول الله ﷺ يقرؤه على الصحابة ويسمعونه منه في الصلوات الجهرية .

وكان كتاب الله في المحل الأول من عنايتهم يتنافسون في استظهاره وحفظه ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما ما يحفظون منه وكانوا يهجرون لذة النوم إيثاراً للذة القيام به في الليل حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دويا كدوي النحل بالقرآن[٤]

ومن الأمور البديهية أن العرب كانوا يعتمدون في نقل علومهم على الرواية والحفظ وفيهم سرعة الحفظ وسيلان الذهن وهذا أمر معروف وظاهر[٥]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي م١٠ ج١٠٦/١٩

(٢) سورة القيامة آيتي ١٦- ١٧

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤٣/٩ ، كتاب فضائل القرآن ، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤٩٩٨

(٤) مناهل العرفان ، الزرقاني ٢٣٤/١

(٥) الأعراب الرواة ، د. عبد الحميد الشلقاني ص١٧ ، دار المعارف ، ١٩٧٧م . العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ص ١٤٢ ، ط١٠ ، ١٩٨٢ م . مناهل العرفان ، الزرقاني ٢٣٣/١

وقد حفظه عدد كثير من الصحابة _رضوان الله عليهم_ ومما يدل على ذلك قول الإمام القرطبي _رحمه الله : "قتل يوم اليمامة سبعون من القراء وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد "[١]

وقد سمى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام القراء من الصحابة في أول كتاب القراءات له فسمى عددا كثيرا[٢] ذكر بعضهم السيوطي فقال " فعد من المهاجرين الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالما وأبا هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة وعائشة وحفصة وأم سلمة ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذ الذي الذى يكنى أبا حليمة ومجمع بن حارثة وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد "[٣]

قال المحقق ابن الجزري " ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة .

ففي الحديث أن النبي ﷺ قال " إن ربي قال لي : قم في قريش فأنذرهم ، فقلت له : أي رب إذن يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة فقال : إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ..... الحديث "[٤]

---

(١) عن الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ١ / ٧١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ١/ ٣٠٦ ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

(٣) الاتقان ٧٢/١

(٤) أخرجه مسلم رقم الحديث ٢٨٦٥ ص ٢١٩٧ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، ط١٠ إحياء التراث العربي ، بيروت

فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء بل يقرأ في كل حال كما جاء في صفة أمته " أناجيلهم صدورهم " وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرؤونه كله إلا نظرا لا عن ظهر قلب"[١]

وهؤلاء الذين عدهم أبو عبيد القاسم بن سلام من المهاجرين والأنصار ليسوا إلا طائفة من الأصحاب رضي الله عنهم الذين جمعوا كتاب الله في صدورهم وتيسر لهم أن يعرضوه على النبي ﷺ لكن الذين حفظوا القرآن من الصحابة من غير أن يعرضوه على الرسول ﷺ لا يحصون عددا ولا سيما إذا أدخلنا في عدادهم من لم يكمل الجمع إلا بعد وفاة النبي ﷺ [٢]

وفي مقدمة " طبقات القراء " للحافظ الذهبي ما يبين أن هذا العدد هم الذين عرضوه على النبي ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير[٣]

و إلى جانب حفظه في الصدور فقد كان ﷺ له كتاب يكتبون له الوحي "و ممن كتب له في الجملة الخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أميه وحنظله بن الربيع الأسدي ومعيقيب ابن أبي فاطمة وعبد الله بن الأرقم الزهري وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن ورواحه في آخرين"[٤]

---

(١) عن مناهل العرفان ، محمد الزرقاني ٢٣٥/١ .علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه ، د. عدنان محمد زرزور ص ١٢٢ ، دار الإعلام – الأردن ط١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م

(٢) البرهان ، الزركشي ٣٠٦/١. مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ص٦٧ ، مناهل العرفان ، الزرقاني ٢٣٨/١

(٣) البرهان ، الزركشي ٣٠٦/١

(٤) فتح الباري ، ابن حجر ٢٢/٩

وأول من كتب له بمكة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأول من كتب له بالمدينة أبي بن كعب وأكثر ما كان يكتب له بالمدينة زيد بن ثابت رضي الله عن الجميع وأرضاهم[١] وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكنه غير مجموع في موضع واحد[٢]

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ لم يتوف إلا والقرآن كله مكتوب ومحفوظ لدى عدد كثير من الصحابة _رضي الله عنهم .

ولما كانت موقعة اليمامة في عهد أبي بكر الصديق _رضي الله عنه_كثر القتل في حفاظ القرآن فخشي عمر بن الخطاب ﷺ أن يشتد القتل فيهم في المواقع الأخرى فيذهب كثير من القرآن ولذلك أشار على أبي بكر الصديق ﷺ أن يجمع القرآن الكريم في موضع واحد فتردد أبو بكر ﷺ بادئ الأمر ثم شرح الله صدره لذلك فدعا زيد بن ثابت _رضي الله عنه_وقال له : إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن . وتردد زيد أول الأمر ثم شرح الله صدره لذلك فقام به[٣]

قال الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي : كتابة القرآن ليست محدثة فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع[٤] والأكتاف[٥] والعسب[٦] وإنما أمر الصديق

---

(١) فتح الباري ، ابن حجر ٢٢/٩

(٢) الإتقان في علوم الفرآن ، السيوطي ٥٧/١ . فتح الباري ، ابن حجر ١٢/٩

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٩ / ١٠ -١١ ، كتاب ٦٦ فضائل القرآن ، باب ٣ جمع القرآن ، حديث ٤٩٨٦. الإتقان في علوم القرآن ٥٧/١

(٤) الرقاع : جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد [فتح الباري ، ابن حجر ١٤/٩]

(٥) الأكتاف : جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه [فتح الباري ، ابن حجر ١٤/٩]

(٦) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض [فتح الباري ، ابن حجر ١٤/٩]

بنسخها من مكان إلى مكان وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شئ[١]

وقد نهج زيد بن ثابت ﷺ في كتابة القرآن على عهد أبي بكر الصديق ﷺ نهج التثبت اليقيني في كتابة الآيات التي يجمعها مستندا في ذلك إلى ثلاثة أمور اشترط توافرها في الكتابة :

١- أن تكون الآيات محفوظة في صدور الصحابة_رضي الله عنهم.

٢- أن تكون قد كتبت بين يدي الرسول ﷺ .

٣- أن يشهد شاهدان عدلان على أن الآيات قد كتبت بين يدي الرسول ﷺ [٢]

وعلى هذا المنهج الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة_رضي الله عنهم_ وإجماع الأمة دون نكير واقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته وظفرت بتواتر ما فيها[٣]

وقد نقله الصحابة – رضوان الله عليهم – إلى من بعدهم ثم نقله التابعون إلى من بعدهم وهكذا نقله كل جيل إلى من بعده إلى عصرنا الحاضر متواترا محفوظا لا ينقص منه حرف ولا يزاد فيه حرف ولا يختلط بغيره[٤]

---

(١) البرهان ، الزركشي ٣٠٠/١

(٢) الإتقان ، السيوطي ٥٨/١ . مناهل العرفان ، الزرقاني ٢٤٥/١

(٣) مناهل العرفان ، الزرقاني ٢٤٦/١ . هدي الفرقان في علوم القرآن ، د. غازي عناية م١ ج١ / ٢٥٦ . المرشد الوافي في علوم القرآن ، د. محمود بسيوني فوده ، ص١٢٩-١٣٠ ، مطبعة الأمانة ، مصر ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م. مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ص٧٨.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ٢ /٢١٩. البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ١٣٣/٢-١٣٥ . مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ص٨٩ .المرشد الوافي في علوم القرآن ، د. محمود قدورة ص ١١٣ .هدي الفرقان في علوم القرآن م١ ج٣١٣/١ -٣١٤ .الكتب السماوية وشروطها وصحتها ، عبد الوهاب طويلة ص٢٥

والتواتر : هو ما رواه جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه على أن لا يختل هذا الجمع في أي طبقة من طبقات السند[١]

وهو قطعي الثبوت وهو بمنزلة العيان فالتواتر أعلى مراتب النقل[٢] .

ولقوة ظهور دقة نقل القرآن وحفظه نجد المنصفين من علماء الغرب يشـــهدون بهـــذا ومن نماذج ذلك

١- قال أحد علماء الإنجليز في محاضرة له عن الإسلام ألقاها سنة ١٣٨٥ه " ..... فلن يُشَك في أن القرآن كتاب مُنَزل"[٣]

٢- قال شفالي : لقد جاء القرآن " أكمل وأدق مما يتوقعه أي إنسان"[٤]

٣- تقول الدكتورة لورا فيشا فاغليري أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة في جامعة نابولي بإيطاليا : " فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرفه قط لا أصدقاؤه ولا أعـــداؤه . لا المثقفون ولا الأميون ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان ، والذي لا يزال إلي اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء – حملة الشرائع – إلى هـــذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذ نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب"[٥]

---

(١) المستصفى من علم الأصول ، أبو حامد الغزالي ٨٥/١ ،ط١ ، مصر ، ١٣٥٦هـ . تدريب الراوي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ص ٣٧١ . تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة – مصر ، ط١ ، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م . أصول الحديث ، د محمد الخطيب ص ٣١٥ ، دار المنارة – جدة ،ط٦ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م .

(٢) أصول الحديث ، د محمد الخطيب ص ٣١٥

(٣) خصائص الدعوة الإسلامية ، محمد أمين حسن ص٤٣

(٤) مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ص٨٩

(٥) محمد عبقري مصلح أم نبي مرسل ، محمد شيخاتي ص ٢٢٣-٢٢٤ ، ط١ ، ١٣٩٢هـ عن خصائص الدعوة محمد أمين حسن ص٤٣-٤٤

وكما حفظ الدين من التغيير فإنه _أيضا_سالم من النسخ قال الله تعالى مبينا ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبين "[١]

قال الإمام ابن كثير : فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة "[٢]

وعن جبير بن مطعم _رضي الله عنه_قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول " إن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي"[٣]

ومما سبق يتضح أن القرآن والسنة ثابتان وعند المسلمين الأدلة الكافية على صحة نسبتها إلى نبيهم محمد ﷺ مما لا يوجد عند غيرهم .

لكن بقي إثبات صدق الرسول محمد ﷺ .

إن الأدلة على صدق الرسول محمد ﷺ كثيرة جدا ولا يسعنا تتبعها وقد ذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفا[٤] لكن نشير إلى شئ من ذلك فمن دلائل صدقه سيرته ﷺ[٥]

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٠

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ' الصابوني ١٠٠/٣

(٣) أخرجه البخاري ، ح ٣٣٣٩ ، كتاب المناقب باب ما جاء في أسماء الرسول ، دار بن كثير ، ١٩٨٧م ، بيروت وأخرجه مسلم ح ٢٣٤٥ كتاب الفضائل ، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم

(٤) دلائل النبوة ، البيهقي ١٠/١

(٥) دلائل النبوة المحمدية ، في ضوء المعارف الحديثة ، محمود مهدي استانبولي ص٧٣٣ وما بعدها ، مكتبة المعلا ،الكويت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

إن من ينظر في حال الرسول ﷺ وسيرته وفي الكتاب الذي جاء به ليعلم يقينا أنه رسول الله حقا وصدقا والنظر في أمره – صلوات الله وسلامه عليه – ليس بالأمر العسير فسيرته وتاريخه مسجلان أحسن ما يكون التوثيق التاريخي. ومتى ما أحسن الإنسان نيته وقرأ بتجرد فإنه سيجد أن محمدا ﷺ شبَّ والله تعالى يحفظه ويكلؤه من أدناس الجاهلية حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة حتى صار يسمى بالأمين(١)

لقد وصف بالصدق الرسول ﷺ أحبابه وخصومه وهذا طرف من كلامهم :

قالت خديجة –رضى الله عنها– لرسول الله ﷺ أول ما نزل عليه الوحي ورجع بصدر سورة أقرأ خائفا قائلا : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال : يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر وقال : خشيت عليَّ فقالت: كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق"(٢)

فشهدت له بالصدق قبل الرسالة .

وقال النضر بن الحرث لقريش :"قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم : ساحر لا والله ما هو بساحر"(٣)

---

(١) السيرة النبوية ، ابن هشام ٢٢٩/١ ، تحقيق : عادل عبد الموجودوعلى معوض والدكتور فتحى حجازي ، مكتبة العبيكان – الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م . السيرة الحلبية ، على الحلبي ٢٣٦/١ ، دار المعرفة – بيروت ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م . السيرة النبوية المسمى عيون الأثر ، محمد بن عبدالله بن سيد الناس ٧٥/١ دار الحضارة – بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

(٢) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ، أبو حاتم محمد بن حيان البستي ص ٦٤ – ٦٥ ، صححه وعلق عليه : السيد عزيز بك وجماعة من العلماء ، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

(٣) مقدمة دلائل النبوة ، أبو بكر أحمد البيهقي ٤١/١ . توثيق وتعليق د. عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م

وكان الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف يكذب النبي ﷺ في العلانية فإذا خلا مع أهل بيته قال : "ما محمد ﷺ من أهل الكذب ولا أحسبه إلا صادقا"[١]

ولما صعد رسول الله ﷺ على الصفا ونادى بطون قريش فقال لهم : " أريتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا[٢]

وإذا كان محمد ﷺ قد عرف بالصدق التام مع الناس وأنه ما أثر عنه كذب عليهم فهل يتصور أن يكذب على الله تعالى؟

إن هذا محال كما قال ملك الروم لما سأل أبا سفيان : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . قال : فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[٣]

إن هذا أمر متناف مع طبيعة الأشياء فهي تأبى أن يظل الرجل صادقا مشهورا بالصدق لا يفتري الكذب على بشر من بني جنسه ثم يكذب كذبة عظيمة لا يجرؤ عليها إلا شرار الناس فيزعم كذبا أنه رسول من عند الله تعالى .

إذا قلنا عن محمد ﷺ أنه كاذب فمن يصدق ؟!

---

(١)المصدر السابق ٤١/١

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨/ ٥٠١ ، كتاب ٦٥ التفسير باب ٢ " وأنذر عشيرتك الأقربين " حديث رقم ٤٧٧٠ . الوفاء بأحوال المصطفى ، أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي ١٨٣/١ ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، دار الكتب الحديثة – مصر ، ط١ ،١٣٨٦هـ-١٩٦٦ م

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١/ ٣١-٣٢ ، كتاب بدء الوحي ، باب ٦ حديث رقم ٧ ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، محمد أبو شهبة ٣٥٩/٢ ، دار القلم – دمشق ،ط٣ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م

إن الذي يتهم محمد ﷺ بالكذب وقد عرف تاريخه ينبغي له إن أراد يكون منطقيا مع نفسه ألا يصدق إنسانا أبدا

إن هذه التهمة بعيدة كل البعد عن محمد ﷺ ويزيدها بعدا أن الناس إنما يكذبون لتحصيل منفعة دنيوية ولكن تاريخ النبي الكريم ﷺ يدلنا على أنه لم ينل من دعوته كسبا ماديا :

لقد لاقي – صلوات الله وسلامه عليه – الأذى من التكذيب والسب والسخرية والضرب والمقاطعة الاجتماعية والتجويع والإخراج ثم كانت الحروب والقتال التي شنها عليه أعداؤه

ولما أن نجحت دعوته بتوفيق من الله عز وجل وجاءت إليه الأموال هل تغيرت سيرته فذهب يسكن القصور ويؤثثها بفاخر الأثاث ؟

نجد أن محمدا ﷺ ظل هو الرجل الزاهد في الدنيا المتواضع الجانب العظيم الخلق وكان من كلامه – صلوات الله وسلامه عليه " مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"[١]

ومن كلامه ﷺ " ما أحب أنه [يعني جبل أحد] تحول لي ذهبا يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا دينار أرصده لدين"[٢]

وذكر عمر بن الخطاب ﷺ ما أصاب الناس من الدنيا فقال : "لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا[١] يملأ به بطنه" [٢]

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ح ٢٣٧٧ ، كتاب الزهد ، دار إحياء التراث ، بيروت

(٢) أخرجه البخاري ح ٢٢٥٨ ، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ، باب أداء الدين

إن الذي يتهم محمدا ﷺ بالكذب أجدر أن ترد التهمة عليه فيقال له : أنت الكاذب لأنك تكذب من تعلم صدقه .

قال الله تعالى :" فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِيْنَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُوْنَ"(٣)

ومن دلائل صدقه ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وسأختار بإذن الله تعالى بعض هذه المعجزات الواردة بطرق صحيحة .

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : " لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺخَمَصًا(٤) شَدِيدًا ، فَانْكَفَيتُ(٥) إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ : هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺخَمَصًا شَدِيدًا ، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ : لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ : " يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا(٦) فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ (٧)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ " ، فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي ، فَقَالَتْ : بِكَ وَبِكَ ، فَقُلْتُ : قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ ، فَأَخْرَجَتْ

---

(١)الدقل : أردأ التمر [معجم مختار الصحاح ' محمد الرازي ص١٣٨ ، ضبط وشرح : د . محمد طريفي ، دار صادر ط١ ، ١٤٢٩، بيروت]

(٢)أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٠/٨ ، كتاب الزهد والرقائق ،باب حدثنا قتيبة بن سعيد ح٧٦٥٢

(٣) سورة الأنعام آية ٣٣

(٤) خمصا : هو خموص البطن [فتح الباري ، ابن حجر ٣٩٩/٧]

(٥)انكفيت : انقلبت [المصدر السابق ٣٩٩/٧]

(٦) سورا : هو هنا الصنيع بلغة الحبشة [فتح الباي ، ابن حجر ٣٩٩/٧]

(٧) فحي هلا : كلمة استدعاء فيها حث ، أي هلموا مسرعين [المصدر السابق ٣٩٩/٧]

لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ، ثُمَّ قَالَ : " ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا وَهُمْ أَلْفٌ ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ[١] كَمَا هِيَ وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ"[٢]

ومن ذلك تكثير تمر جابر بن عبد الله ببركة الرسول ﷺ [٣] ومنها مسحه ساق عبد الله بن عتيك وكانت قد انكسرت فبرئت كأنه لم يشتكها قط [٤]

ومنها إخباره بالغيب كإخباره صلوات الله وسلامه عليه بقتل المسلمين لأمية بن خلف[٥] وغير ذلك من المعجزات[٦] وأعظم معجزاته – صلوات الله وسلامه عليه – القرآن الكريم وسأحاول إلقاء الضوء على بعض ألوان الإعجاز فيه .

الإعجاز البياني :

لما نزل القرآن الكريم على رسولنا محمد ﷺ جاء بأسلوب لم يعرف له العرب مثيلا في البلاغة والبيان فهو وإن كان مؤلفا من حروفهم وكلماتهم إلا أنه ينصب في قالب متفرد يدركون حلاوته ويستشعرون روعته ولكنهم وزنوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن تقليده [٧]

---

(١) تغط : أي تغلي وتفور [المصدر السابق ٣٩٩/٧]

(٢) صحيح البخاري المطبوع من فتح الباري ٣٩٥/٧ - ٣٩٦، كتاب ٦٤ المغازي ' باب ٢٩ غزوة الخندق حديث رقم ٤١٠٢

(٣) المصدر السابق ٣٩٥/٧، كتاب ٦٤المغازي ، باب ١٨ (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) حديث رقم ٤٠٥٣

(٤) المصدر السابق ٣٤٠/٧ – ٣٤١ ، كتاب ٦٤ المغازي ، باب ١٦ – قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق حديث رقم ٤٠٣٩

(٥) المصدر السابق ٢٨٢/٧ ، كتاب ٦٤ المغازي ' باب ٢ ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر ، حديث رقم ٣٩٥٠

(٦) لمزيد من الأمثلة ارجع إلى كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفي ، أبو الفضل عياض اليحصبي ص١٥٤-٢٢٥ ، وبذيله مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء لأحمد الشمني ، اعتنى به وراجعه : هيثم الطعيمي ، نجيب ماجدي ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، كتاب نبوة محمد من الشك إلي اليقين ، د . فاضل السامرائي ص ١٦٤ - ١٩٣

(٧) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح الشيخ: محمد عبده ص ٣٢ ، دار الكتب العلمية : بيروت ط١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م . البيان القرآني،د.محمد رجب بيومي ص١٥ ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ،ط١، ١٤٢١هـ ،٢٠٠١م

نعم إنه معجز في أسلوبه وفي هدايته ، في جدله وحواره ، في حكمه وأمثاله ، في قصصه وتكراره وفي كل ما أورده من وسائل التعبير وصور البيان[١]

"وقد أجمع الباحثون على القول بالإعجاز البياني وأن القرآن معجز ببلاغته وأسلوبه وبيانه وتعبيره"[٢]

وقد تحدي الله تعالى العرب أن يأتوا بمثل القرآن فقال عز من قائل : " أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ "[٣]

وقد سجل القرآن عجزهم فقال سبحانه " قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا "[٤]

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال عز وجل :

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"[٥]

فعجزوا. وتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة في قوله عز وجل :

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"[٦]

---

(١) أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني ، د عمر محمد عمر باحاذق ص ٣٤٩ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤م

(٢) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص ٦

(٣) سورة الطور آية ٣٣-٣٤

(٤) سورة الإسراء آية ٨٨

(٥) سورة هود آية ١٣

(٦) سورة يونس آية ٣٨

تحدى القرآن العرب بذلك وهم الفصحاء اللد وأصحاب الكلمة والخطباء المصاقع والشعراء الفحول ولو كان في مقدورهم ذلك لم يتكلفوا المهالك لأنفسهم وأموالهم ولم يصبروا على تسفيه أحلامهم وذم آلهتهم ولجعلوا هذا التحدي فرصة لإيقاف الرسول ﷺ عن دعوته. والإعجاز ليس للعرب فحسب بل للبشر جميعا ولم يُعْرف أن أحداً حاول معارضة القرآن إلا باء بالخزي والعار والفضيحة [١]

ومن نماذج الإعجاز البياني في القرآن الكريم ما ذكره الإمام ابن القيم _رحمه الله تعالى_ عند قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "[٢] حيث قال_رحمه الله : " أمر الله في أول هذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي ، ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ووعظ في آخرها وذكّر . فجمع في هذه ضروبا من البيان وأنواعا من الإحسان فذكر العدل والإحسان والفحشاء والمنكر بالألف واللام التي هي للاستغراق أي استغراق الجنس المحتوي على جميع أنواعه وضروبه ، وجمع فيها بين الطباق اللفظي والطباق المعنوي.أمَّا اللّفظي ففي قوله إن الله يأمر وينهى.وأمّا المعنوي ففي قوله: العدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى، وقوله الفحشاء والمنكر والبغي، فإن الثلاثة الأواخر أضداد الثلاثة الأُول؛ لأن الثلاثة الأُول من الفعل الحسن والثلاثة الأواخر من القبيح فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية ، ثم بيّن خصوصية ذوي القُربى بإعادة الإيصاء عليهم والإيتاء لهم، مع أن الأمر بالإحسان قد تناولهم.وبدأ بالعدل لأنه فرض، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب إليه وقد يجب، فاحتوت الآية على

---

(١) الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ص ١٠٨ - ١١٠

(٢) سورة النحل آية ٩٠

حُسن النسق، وعطف الجُمل بعضها على بعض، فقدّم العدل وعطف عليه الإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعاً خاصّاً وهو إيتاء ذي القُربى، ثم أتى بالأمر مقدّماً وعطف عليه النهي بالواو، ثم رتّب جُمل المنهيّات، كما رتّب جُمل المأمورات في العطف، بحيث لم يتأخّر في الكلام ما يجب تقديمه، ولم يتقدّم عليه ما يجب تأخيره، ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة، ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة.فاحتوت الآية على ضروب المحاسن والقضايا، وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا، ما لو بثّ في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها، ولا احتوت على أصولها ومبانيها- سبحان من لا يشبه خلقه ذاتا ولا كلاما ولا أحكاما" [1]

ولكن الذي وجد منهم _أي العرب_ هو ازديادهم عنادا واستهزاءا ووصفه كذبا وزورا فتارة يقولون : سحر وأخرى أساطير الأولين مع أن كبارهم يصرحون بإعجابهم به وما يمنعهم من بقائهم على ذلك إلا خوف غضب قومهم عليهم .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : "جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رَقّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه . فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا لئلا تأتي محمدا لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له . قال وماذا أقول ؟! : فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي نقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطم ما تحته

---

(١) كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم ص٨٠ ، دراسة وتحقيق : محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن . القاهرة

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر أثره عن غيره فأنزل فيه قوله تعالى:" ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ... إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ"(١)(٢)

٢- خلوه من التناقض والاختلاف

من أوجه إعجاز القرآن الكريم ما ذكره الله تعالى في قوله :" وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً"(٣) أي لو كان مفتعلا مختلفا لوجدوا فيه تفاوتا وتناقضا وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله(٤) والاختلاف والاضطراب شأن كلام البشر لا سيما إذا طال وتعرض قائله للإخبار بالغيب(٥)

قال العلامة ابن سعدي _رحمه الله : وأما ما سوى القرآن من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن القلوب بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الاحكام(٦)

إن من يقرأ القرآن من أوله إلى آخره لا يجد فيه عبارة تناقض عبارة أخرى وهذا أمر لا يتيسر للبشر فإن من يكتب كلاما بحجم القرآن الكريم فلابد أن يقع في التناقض إما صراحة أو ضمنا

---

(١) سورة المدثر الآية ١١ - ٢٥

(٢) لباب لنقول في أسباب النزول ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ص٢٢٣ – ٢٢٤ دار إحياء العلوم ، بيروت وقال : أخرجه الحاكم وصححه

(٣) سورة النساء آية ٨٢

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٤١٦/١

(٥) فتح القدير ، الشوكاني ٤٩١/١

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ١٠٨/٤

واحتمال وقوع البشر في التناقضات له أسباب ثلاثة وهي :

١- طول المدة :

كلما طالت المدة التي يتحدث فيها الإنسان كلما زادت امكانية احتمال وقوعه في الاختلاف فمن يلقي حديثا لمدة عشر دقائق يستطيع أن يكون منتبها لما يقول فلا ينقض آخر كلامه أوله لكن من يتحدث لمدة أربع ساعات يزداد احتمال غفلته ومن ثم وقوعه في التناقض فكيف إذا ظل يتحدث أو يكتب كل يوم على مدى ثلاثة و عشرين عاما .

وعلى سبيل المثال فهذه رسائل [الماجستير] و [الدكتوراه] يقضي الباحث في إعدادها سنتين أو ثلاث أو يزيد تحت إشراف أحد الأساتذة المعدودين ومع ذلك إذا جاءت المناقشة أخرجوا الكثير من الملحوظات عليها،وهذا دليل على وجود التناقض والاختلاف في كلام البشر.

٢- تعدد الموضوعات :

يزداد احتمال وقوع الاختلاف كلما تعددت الموضوعات فمن يكتب في موضوع واحد حري به أن يكون كلامه أكثر اتساقا من آخر يكتب في موضوعات شتى كالتاريخ والكيمياء والفيزياء والاقتصاد والسياسة والعبادات ومما يؤكد هذا كتابات الفلاسفة وقادة الفكر الأوربي الذين حاولوا أن يقدموا للبشرية منهج حياة متكامل فكتبوا في كل تلك الأمور فقد اكتشف من جاء بعدهم تناقضهم واضطرابهم[١] فيما كتبوا .

٣- حجم الكلام

---

(١) خصائص الدعوة ، د. يوسف القرضاوي ص٤٩

كلما ازداد حجم الكلام أو الكتابة ازداد احتمال وقوع الخطأ والتناقض فالـذي يكتـب عشر صفحات في يوم أو في عشر سنوات ليس كالذي يكتب خمسمائة صفحة في نفس تلك المدة .

وقد اجتمعت في القرآن الكريم كل هذه الأسباب الثلاثة الداعية إلى التناقض والاختلاف في كلام البشر ، فهو يعدُّ من الكتب الطويلة ونزل منجما على مدى ثلاثة و عشـرين عاما ويعد منهج حياة متكامل يتناول العقيدة والعبادة كما يتنـاول المعـاملات المدنيـة والتشريعات الجنائية والعلاقات السياسية و غيرها ، ومع ذلك فهو خال تماما مـن أي تناقض أو اظطراب .

٣- الإخبار بالمغيبات التي تقع في المستقبل

ومن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم إخباره بأمور غيبيه تحققت في المسـتقبل ومـن نماذج ذلك :

أ- الإخبار بغلبة الروم على الفرس

قال الله تعالى " الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَـيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"(١)

ففي هذه الآيات أخبر الله عز وجل أن الفرس قد غلبت الروم وأن الـروم سـيغلبون وينتصرون على الفرس بعد ذلك في بضع سنين وقد حدث ذلك(٢)

---

(١) سورة الروم الآيات من ١ - ٥

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٤٦/٣ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي م٧ ج١٤/١-٣

ب- الوعد بدخول المسجد الحرام

قال الله تعالى:" لقدْ صدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا"(١)

قال الإمام ابن كثير_رحمه الله : كان رسول اله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تقع هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة – رضي الله عنهم – من ذلك شئ حتى سأل عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا . قال النبي ﷺ : فإنك آتيه ومطوف به ..... ولهذا قال تبارك وتعالى " لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِين" هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شئ"(٢) وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع(٣)

جـ – قال الله تعالى : " أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ"(٤)

---

(١) سورة الفتح آيتي ٢٧-٢٨

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٣٥٣/٣

(٣) المصدر السابق ٣٥٣/٣

(٤) سورة القمر آيتي ٤٤ و ٤٥

قال الإمام القرطبي : سيهزم الجمع أي جمع كفار مكة وقد كان ذلك يوم بدر وغيره " (١)

٤- الإعجاز العلمي التجريبي

إن القرآن الكريم يتحدث عن كثير من الأمور العلمية التجريبية ، والقرآن ليس كتاب فيزياء ولا كيمياء ولا أحياء ولا فلك ولكنه تكلم في كل شئ يهم الإنسان وهو كتاب هداية للناس يهديهم من الضلالة إلى النور وهو كتاب إعجاز للجميع وليس لجيل دون جيل من لدن بعث محمد ﷺ إلى قيام الساعة ومن ضمن الإعجاز فيه الإعجاز العلمي التجريبي الذي ظهر في العصر الحديث فقد تطور العلم البشري تطورا هائلا ولكن لا نجد فيما اكتشف الناس من حقائق الفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو الفلك أو التاريخ أو الجغرافيا حقيقة واحدة تخالف ما قرره القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان بل نجد في هذه المكتشفات ما يؤيد ما قرره القرآن وبيَّنه وهذا على العكس مما يحدث للكتب الأخرى وهو لون من ألوان الإعجاز على المسلمين أن يستغلوه في الدعوة إلى الله تعالى.

هذه حقيقة بهرت كثيرا من علماء الغرب المنصفين فقرروها بشجاعة[٢]حيث بينوا أن المكتشفات العلمية التجريبية الحديثة تؤيد ما جاء به القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرنا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي

(٢) ذكر الدكتور عماد الدين خليل مجموعة منهم لا بأس بها في كتابة القرآن الكريم من منظور غربي ص٤٤-٤٩ ، دار الفرقان ، ط١ ، ١٤١٧ هـ ، - ١٩٩٦م ، عمان - الأردن

قال الدكتور الفرنسي موريس بوكاي :"لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن إلي حد بعيد لأني لم أكن أظن أبدا أنه يمكن حتى هذا الزمن أن نكتشف في نص مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا عدد من اليقينيات المتصلة بموضوعات شديدة التنوع ومتفقة تماما مع المعارف العلمية الحديثة "[١]

ويقول " والذي يدهش فكر من يواجه هذا للمرة الأولى هو غزارة الموضوعات المطروحة مثل الخلق ، والفلك ، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض وجنس الحيوان والنبات وتكاثر الإنسان ، تلك الأمور التي نجد عنها في التوراة دون نص القرآن أخطاء علمية كبيرة تحملني على التساؤل : إذا كان كاتب القرآن بشرا فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت أنه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة"[٢]

ويقول أيضا :" إن الاعتبارات التي سنتوسع فيها في هذه الدراسة ستوصلنا من وجهة النظر العلمية فقط إلى الحكم بأن من المستحيل تصور رجل عاش في القرن السابع الميلادي واستطاع أن يورد في القرآن أفكارا في موضوعات متنوعة جدا، ليست أفكار عصره تلتقي مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه . أما بالنسبة إلي فليس للقرآن أي تفسير بشري"[٣]

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، موريس بوكاي ص ١٤٧-١٤٨ ، ترجمة الشيخ حسن خالد ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، بيروت

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ،موريس بوكاي ص١٤٩

(٣) المصدر السابق ص ١٥٤

ومن نماذج ذلك أيضا ما لا حظته يوجينا ستشيجفسكا الباحثة البولونية المعاصرة في القرآن الكريم "من حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة"[١]

وتبين فاغليري الإيطالية أن القرآن الكريم فيه "ذخائر واسعة من المعرفة تُعجِز أكثر الناس ذكاء وأعظم الفلاسفة وأقدر رجال السياسة " ثم تصل إلى "أن القرآن لا يعقل أن ينبثق من غيرا الذات التي وسع علمها كل شئ في السماء والأرض"[٢]

ومن نماذج الإعجاز العلمي التجريبي في القرآن :

١- ما ورد في قول الله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا"[٣]

وقد بين المفسرون أنه كلما انشوت جلود الكفار فاحترقت غيَّر الله تعالى الجلود التي نضجت وأن السبب في ذلك ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته بسبب ما كانوا في الدنيا يكذبون آيات الله ويجحدوها[٤]

ووجه الإعجاز أن الله تعالى ربط بين الجلد والإحساس بالألم "وأنه حينما ينضج الجلد ويحترق ويفقد تركيبه ووظيفته ويتلاشى الإحساس بألم العذاب يستبدل بجلد جديد مكتمل التركيب تام الوظيفة ، تقوم فيه النهايات العصبية المتخصصة بالإحساس بالحرارة و بآلام الحريق بأداء و ظيفتها ومهمتها ؛ لتجعل هذا الإنسان الكافر بآيات الله تعالى يذوق عذاب الاحتراق بالنار ولقد كشف العلم الحديث أن

---

(١) القرآن الكريم من منظور غربي ' د. عماد الدين خليل ص٤٧-٤٨

(٢) المرجع السابق ص٤٨

(٣) سورة النساء آية ٥٦

(٤) تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري ١٦٣-١٦٧ تحقيق د. عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ،ط١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

النهايات العصبية المتخصصة للإحساس بالحرارة وآلام الحريق لا توجد بكثافة إلا في الجلد[١]

٢- ما ورد في قوله تعالى: " فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ"[٢]

بعد أن تمكن الإنسان من الطيران والصعود في السماء والارتفاع إلى طبقات الجو العليا عرف أنه كلما ارتفع إلى أعلى قلّ الأكسجين والضغط الجوي مما يسبب ضيقا شديدا في الصدور وعملية التنفس وذلك ما صرحت به الآية الكريمة قبل طيران الإنسان بأكثر من أربعة عشر قرنا .

و هذه الآية الكريمة تمثل حال من عمل ما يستحق به أن يعاقبه الله بإضلاله عند سماعه الموعظة وما يتصل بالإسلام وما يصيبه من ضيق شديد كحال ذلك الذي يتصعد في السماء . وما أدرى الرسول ﷺ الأمي بتلك الحقيقة التي لا يعلمها إلا الله[٣]قبل هذا الاكتشاف العلمي .

---

(١) تأملات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ،الشيخ عبد المجيد الزنداني ود. صلاح الدين المغزي والشيخ عبد الله الحمود ص٤٩-٥٠ ، دار المجتمع ، جدة ، ط١ ،١٤١٤هـ

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٥

(٣) القرآن يسبق العلوم الحديثة – توحيد الخالق ، عبد المجيد الزنداني ٤٧/٣

٣- ما ورد في قول الله عز وجل :

"وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا" (١)

أخبر الله تعالى في القرآن الكريم بما كشفه العلم أخيرا من أن القمر كان مشتعلا فانطفأ.

فالقمر آية الليل والشمس آية النهار .

وقوله سبحانه فمحونا آية الليل أي طمسنا وأزلنا ضوءها ، والمحو والطمس لا يكون إلا بعد الإنارة فمن هنا علم أن القمر كان مشتعلا ثم أنطفأ ومحي ضوؤه (٢)

ونجد هذا في تفسير علماء المسلمين من السلف

قال ابن عباس " كان القمر يضئ كما تضئ الشمس والقمر آية الليل والشمس آية النهار "فمحونا آية الليل" السواد الذي في القمر (٣)

لكن مع قوة تأثير هذا الإعجاز في الدعوة فإنه يخشى من الاندفاع غير المنضبط فيه ولذلك لابد للمشتغل فيه ألا يلهث وراء هذا الإعجاز دون روية وتأن وأن ينضبط بالضوابط التالية :(٤)

---

(١) سورة الإسراء آية ١٢

(٢) موسوعة الإعجاز العملي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، يوسف الحاج أحمد ، ص٣٠٧-٣٠٨ ، مكتبة ابن حجر ، دمشق و ط٢ – ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٣٦٧/٢

(٤) العلم والدين ، د. كمال فضل السيد خليفة ص ٤٣ ، دار جامعة الخرطوم ، السودان ، ط١ ، ١٩٩٥م ، الإعجاز القرآني ، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود ببغداد في ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠ هـ موضوع القرآن والإعجاز العلمي ، د. عبد الستار حامد ص ٣٣٥ -٣٣٦

١- أن يكون النص صريح الدلالة فلا يتعسف العالم في تحميل الآيات العلمية ما لا يمكن أن تحتمله .

٢- أن يكون الأمر العلمي التجريبي حقيقة قد ثبتت علميا وليست نظرية من النظريات

٣- أن يقبل ذلك التفسير في اللغة العربية

٤- أن لا يصادم نصوص القرآن والسنة المقبولة الأخرى

٥- الإعجاز التشريعي :

اشتمل القرآن على أحكام وتشريعات تتعلق بالفرد والمجتمع ، سواء فيما يتعلق بالأحوال الشخصية وما له صله بالأسرة أو في علاقاته المدنية و التجارية أو ما يتعلق بالتشريع الجنائي أو ما ينظم علاقة الحاكم بالمحكوم أو علاقة المسلمين بغيرهم .

وقد أتت هذه التشريعات في أحكم صورة من البيان والتشريع تعجز عن اللحاق بها قوانين البشر وأنظمتهم[١]

وأنّى لها الآن أن تلحق وهي من عند الله_عز وجل_مصدرها الكتاب والسنة وهي خاتمة الشرائع السماوية و واجب على البشرية جمعاء الالتزام بها في أحكامها وقد جعلها الله صالحة لكل زمان ومكان ، بما أودع فيها من عناصر المرونة و السعة .

والأحكام العملية التي شملتها هذه الشريعة تمتاز على غيرها من الشرائع والقوانين بخصائص متعددة وإعجاز ثابت جعلها بحق الدين الذي يجب أن يسود ويحكم [٢]

---

(١) خصائص الدعوة الإسلامية ، محمد أمين حسن ص٥٩ ،مكتبة المنار الأردن – الزرقاء،ط١ ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

(٢) موسوعة الأعجاز العلمي ، يوسف الحاج أحمد ص٥٩ ، مكتبة ابن حجر ،دمشق ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م

إن التشريع الإسلامي بأبعاده المترامية الأطراف لا يمكن أن يصدر إلا من خالق هـذا الكون ومنظم شؤونه إذ لم تعرف الحضارة البشرية هذا التفصيل الدقيق فـي نوعيـة الأحكام وجزئيتها إلا فيه[١]

ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة في هذا العصر تفقـد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها[٢]

إن الشريعة الإسلامية وعدالتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان قـد بهـرت بمزاياهـا الدارسين للقوانين من غير المسلمين وكان منهم منصفين فما كان منهم إلا أن شـهدوا بما علموا

يقول "شترل" عميد كلية الحقوق في جامعة (فينا) في مؤتمر الحقـوقيين عـام ١٩٢٧م :"إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد[٣] لها إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضـعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمتـه بعد ألفى سنة"[٤]

ومع أن هذه الشهادة فيها مدح للشريعة الاسلامية إلا أنني أحب التنبيه إلى أمرين :

١- أن هذا التشريع لم يأت به محمد ﷺ من نفسه فمن المستحيل أن يأتي أمِّيٍ في ذلك العصر بتشريع يفوق كل تشريع كما قال ذلك شترل وإنما جاء هذا التشريع من الله عز وجل الذي أرسل محمدا ﷺ

---

(١) ملامح الأعجاز في القرآن الكريم لمحمد حسين الصغير ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني ببغداد للمدة ٢١-٢٦ رمضان ص٥٤٤

(٢) الاسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ص١٣٥

(٣) صلى الله عليه وسلم

(٤) طريق الإيمان ، عبد المحيد الزنداني ص٦٢

٢- أنه لا يمكن للأوربيون ولا لغيرهم أن يقاربوا التشريع الربـــاني فضـــلا عـــن أن يصلوا إليه لأن عقولهم محدودة وعلمهم قاصر ناهيك عن ميولهم لأهوائهم ومصالحهم ونجد أن الشريعة الإسلامية قد أصبحت مصدرا من مصادر التشريع العام عند المحاكم الدولية[١]

ومن الأمثلة على الإعجاز التشريعي

١- الطلاق :

يعظم الإسلام شأن العلاقة الزوجية و يحرص على بقائها بشتى الوسائل حتى أنـــه أمر الأزواج بالصبر والتريث وعدم الاستجابة لعاطفة الكراهية إن أحسوا بها .

قال الله تعالى : " "

كما أمر الأزواج أن يعالجوا المرأة الناشز التي امتنعت من طاعـــة زوجهـــا بكـــل الوسائل حتى تعود إلى الموافقة و الطاعة ، إلى غير ذلك من التدابير التي شرعها الإسلام للمحافظة على العلاقة الزوجية .

و مع هذا فقد تستحكم النفرة و يتفاقم النزاع و تخفق كل وسائل الإصلاح و التحكيم ، و التوفيق ، فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته .[٢]

نجد مثلا القانون الفرنسي على سبيل المثال لا الحصر قد حرم الطلاق ثم أباحـــه ثـــم حرمه ثم عاد فأباحه واستقر على ذلك وكذلك نجد القانون الإيطالي بالنســـبة لتشـــريع

---

(١) طريق الإيمان ، عبد المجيد الزنداني ص٦٢-٦٣ ولمزيد من الشهادات ارجع إليه ص٦١-٦٣

(٢) الخصائص العامة للإسلام ، د.يوسف القرضاوي ص١٧٤-١٧٥

الطلاق أي أن هذه القوانين قد انتهت أخيرا إلى اعتناق المبدأ الإسلامي بعد أن مـــرت تشريعاتها بمراحل عديدة من التجارب برهنت على أن إباحة الطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين هي أصلح الأحكام التي تلائم الأمم الإنسانية في كل زمان ومكان[١]

٢- تحريم الدم ولحم الخنزير

قال الله تعالى :" إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِـــهِ لِغَيْـــرِ اللَّـــهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[٢]

وقد أثبتت التحاليل أن الدم يحتوي على كمية كبيرة من "حمض البوليك" وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت كغذاء[٣]

كما أن العلم الحديث اكتشف ما بالخنزير من ديدان وبكتريا ورجس والتـــي لا تمـــوت حتى عند درجات الحرارة العالية[٤]

٦- اشتمال القرآن على أخبار الأمم السابقة

احتوى القرآن على أخبار الأمم الماضية وقد اتفقت هذه الأخبار مع ما هو موجود في كتب اليهود والنصارى مما لم تمتد له يد التحريف والتزييف فيها [٥]

---

(١) بحوث المؤتمر الأول للأعجاز القرآني ببغداد للمدة ٢١-٢٦ رمضان ص٣٢٩

(٢) سورة البقرة آية ١٧٣

(٣)موسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج أحمد ص٥٩

(٤) موسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج أحمد ص٥٩

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى ، أبو الفضل عياض اليحصبي ص١٦٧

ولم يكن الرسول ﷺ يحسن القراءة والكتابة حتى تمتد إليه ألسنة المبطلين بالاتهام بأنـــه اطلع على كتب الأقدمين وفي هذا يقول الله تعالى :

" وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ"[١]

كما رد الله تعالى على كفار مكة عندما افتروا وقالوا :إن محمدا جاء بهذه الأخبار عن طريق غلام نصراني أعجمي في مكة فأسلم[٢] وفي هذا يقول الله عز وجل : "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ"[٣]

أي كيف يعلمه وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها[٤]

---

(١)سورة العنكبوت آية ٤٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، القرطبي م٥ ج١٠ /١٧٧

(٣)سورة النحل آية ١٠٣

(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، القرطبي م٥ ج١٠ /١٧٧

وسائل غرس الربانية :

تمهيد :

لما أخذنا في المبحث السابق إثبات الربانية وصدقنا بوجود الله سبحانه وتعالى تصـــديقا جازماً نسأل الله تعالى الثبات عليه وأن لا يتطرق إليه ردة ولا تزعزع نجد أن النفوس تتطلع إلى معرفة وسائل غرس الربانية وهذا هو موضوع هذا المبحث

إننا إذا تأملنا ما يغرس الربانية في النفس والحياة نجده يتركز في أمرين هما :

العلم والعمل به :

إن العلم ضروري لكل شئ من أمور الدنيا والآخرة فلا يتصور أن يتحقق أمر دنيـــوي أو أخروي ناجح بدون علم فلا ربانية ولا إيمان بلا علم لأن الإيمان ما هـــو إلا علـــم صدقه القلب وانقاد لموجبه "وليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم"[١]

وهذا العلم هو نور الوحي والنبوة ينضم إلى نور الفطرة نور على نور فأشرقت منـــه القلوب واستنارت به الوجوه وحييت به الأرواح[٢]

ولا يمكننا أن نتصور تدينا بدون علم شرعي ولذلك متى ظهر التدين بدون علم صاحبه الجهل الذي يؤدي إلى البدع والخرافات ولهذا فضل الله_سبحانه و تعالى_ العالم علـــى العابد ورفع الله درجة العلماء

---

(١) فتح الباري ، ابن حجر ١٦١/١

(٢) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٧٦

قال الله عز وجل : " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "(١)

وقال سبحانه وتعالى : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُون وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ "(٢)

وقال تعالى : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"(٣)

وقال عز وجل : " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"(٤)

إلى غير ذلك من الآيات في فضل العلم والعلماء .

وقد وردت الأحاديث في هذا الموضوع فمن ذلك ما رواه معاوية ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "من يرد الله به خيرا يفقه في الدين"(٥)

قال ابن حجر_رحمه الله : ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين – أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع – فقد حُرم الخير ... وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم"(٦)

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال : ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، ثم قال رسول الله ﷺ

---

(١) سورة أل عمران آية ١٨

(٢) سورة الزمر آية ٩

(٣)سورة فاطر آية٢٨

(٤) سورة المجادلة آية ١١

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١٦٤/١، كتاب العلم باب١٣ من يرد الله به خيرا يفقه في الدين حديث رقم ٧١

(٦) فتح الباري ، ابن حجر ١٦٥/١ رقم٧١ ، الجامع الصحيح سنن الترمذي ، محمد عيسى الترمذي

"إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتي الحوت ليصلون على معلم الناس الخير"[١]

وما أجمل كلام الإمام ابن القيم_رحمه الله_ وهو يبين آفات الجهل بالطريق إلي الله تعالى حيث يقول :

"الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة ؛ فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب ، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء ، أو همَّة إلى عمل لم ترْقَ بصاحبها إلى ملاحظة المقصود ،أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده، أو عملٍ غفل فيه عن مشاهدة المنّة، فلم يتجرّد عن مشاركة النفس فيه أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه أو عمل لم يوفّه حقه من النصح والإحسان وهو يظن أنّه وفّاه، فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب، والله الموفّق"[٢]

إن مما يطلب من كل المسلمين ومنهم الربانيون خاصة متابعة النبي ﷺ في عملهم ولا يتم ذلك إلا بالعلم الشرعي وبهذا يحقق شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ"

قال ابن رجب – رحمه الله : "وتحقيقه بأن محمدا رسول الله ألا يعبد الله بغير ما شرعه الله على لسان محمد ﷺ"[٣]

---

(١) رواه الترمذي ٥٠/٥ في أبواب العلم، باب فضل الفقه على العبادة ح٢٦٨٥ ،تحقيق : أحمد شاكر وآخرون . دار إحياء التراث العربي ، بيروت . وصححه الألباني ، انظر صحيح سنن الترمذي ٣٤٣/٢ ، رقم ٢٣٨

(٢) الفوائد ، ابن القيم ص٣٠٤ حققه : بشير محمد عيون

(٣) كلمة الاخلاص وتحقيق معناها ، علد الرحمن بن رجب الحنبلي ص٢١، المكتب الإسلامي ط٥، ١٣٩٩هـ ، دمشق

و إلى جانب العلم لابد من وجود العمل الذي هو ثمرة العلم وأصل في نجاة العبد وسلامة له في طريق سيره إلى الله تعالى وزاد له في مدارج مسلكه إلى الله عز وجل وبه يكون قدوة صالحة للناس فيكون داعيا إلى الله عز وجل بفعله .

ولأهمية العمل كمَّل الله تعالى رسله عليهم أفضل الصلاة والسلام وأزكى التسليم به فكانوا قدوة يتأسى بهم فقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ : "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ"(١)

وقال سبحانه حكاية عن شعيب – عليه الصلاة والسلام – حين دعا قومه إلى عبادة الله وعدم بخس المكاييل والموازيين "وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ"(٢)

ومن الأمور التي يسأل المرء عنها يوم القيامة علمه ماذا عمل به(٣)

ولقد ذم الله تعالى اليهود الذين حمَّلهم الله التوراة وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بها ثم لم يعملوا بها أنه لا فضيلة لهم في ذلك

ومثلهم في ذلك كمثل الحمار إذا حمل أسفارا من كتب العلم فهل يستفيد الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره ؟ وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك ؟ أم حظه منها حملها فقط ؟

فهذا مثل علماء أهل الكتاب الذين لم يعملوا بما في التوراة فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه(٤)

---

(١) سورة الأحزاب أية ٢١

(٢) سورة هود آية ٨٨

(٣)رواه الترمذي ٦٧/٢ وهو حديث صحيح بشواهده مختصرا من الأحاديث الصحيحة رقم ٩٤٦ للألباني

(٤)تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٣٨٠/٧

ولأهمية الجمع بين العمل و العلم نجد الصحابة _رضوان الله عليهم_ تعلموا القــرآن ومعانيه والعمل به

قال ابن مسعود ﷺ : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتــى يعــرف معانيهن والعمل بهن[١]

وعلى ذلك سار التابعون الذين تلقوا عــن الصحابة_رضــوان الله علــيهم_فعن أبــي عبدالرحمن السلمي قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها[٢]

وكان السلف ينبهون إلى أهمية العمل بالعلم فمن ذلك قول عبد الله بن مسعود_رضــي الله عنه : "ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية"[٣]

وقال_رضي الله عنه : ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات"[٤]

وقال مسروق_رحمه الله: كفي بالمرء علما أن يخشى الله[٥]

وقال الحسن البصري_رحمه الله : "أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا"[٦]

---

(١)تفسير الطبري ٨٠/١ حققه محمود شاكر ، خرج أحاديثه أحمد شاكر ، دار المعارف قال أحمد شاكر : هذا اسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ولكنه مرفوع معنى ص٥٠ دار الفضيلة ، ط٣ ، ١٤٢٠ هـ ،١٩٩٩م ، الرياض ، هدى الفرقان في علوم القرآن ، د. غازي عناية ٢٣٧/١

(٢)الجامع لاحكام القرآن ، القرطبي م١ج٣٩/١

(٣) حلية الأولياء ، أبو نعسم الأصبهاني ١٣١/١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ

(٤) المصدر السابق ١٣١/١

(٥)المصدر السابق ٩٥/٢

(٦) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٢٩٠/١ ، مؤسسة الأندلس

كما أن الربانية تقتضي الدعوة إلى الله وتعليم العلم وعلى الداعية إلى الله تعالى أن يكون عاملا بما يعمل ليكون أنجح لدعوته فإن الناس يتأثرون بسلوك الدعاة العملي أعظم مما يتأثرون بكلماتهم وخطبهم[١]

وقد ذم الله تعالى من أمر الناس بالمعروف ونسي نفسه فقال سبحانه "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"[٢]

وعن أسامة بن زيد_رضى الله عنه_قال : سمعت من رسول الله ﷺ يقول : يجاء برجل فيطرح في النار فيطحن فيها كما يطحن الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون : أي فلان ، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ؟ فيقول : إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله وأنهى عن المنكر وأفعله[٣]

وليس في هذين النصين دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة أنه لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن المنكر في نفسه لأن سبب الذم والعقوبة هو ترك المعروف وفعل المنكر وليس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم إن على الإنسان واجبين : أحدهما فعل المعروف وترك المنكر والثاني أمر غيره بالمعروف ونهيه عن المنكر وليس تركه لأحد الواجبين مبررا لترك الواجب الثاني كما أن الأخذ بهذا القول يؤدي إلى تعطيل الاحتساب[٤]

---

(١) أسس الدعوة وأداب الدعاة ، محمد السيد الوكيل ص٧٤ ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، القاهرة

(٢)سورة البقرة آية ٤٤

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤٨/١٣ كتاب الفتن ، باب ١٧ الفتنة التي تموج كموج البحر حديث رقم ٧٠٩٨

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ٨٢/١ . شبهات حول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، د. فضل إلهي ، إدارة ترجمان الإسلام ، ط٣ ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، باكستان

ولا يعني هذا التساهل بالعمل بالعلم بل هو أصل أصيل في الإسلام فإن " العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصودا لنفسه من حيث النظر الشرعي وإنما هو وسيلة إلى العمل"[١]

فمن المعلوم أن أفضل العلوم هو العلم بالله _عز وجل_ ومع هذا لا تصح به فضيلة لصاحبه حتي يصدق بمقتضاه وهو الإيمان بالله[٢]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_رحمه الله : "... ولهذا يقال العلم علمان علم في القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان هو حجة الله على عباده"[٣]

وقال الإمام ابن القيم_رحمه الله : "علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت : أقوالهم للناس : هلموا قالت أفعالهم : لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق"[٤]

وعن أهمية العلم والعمل به يقول الإمام ابن القيم_رحمه الله : "السائر إلى الله والدار الآخرة بل كل سائر إلى مقصد لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية وقوة عملية فبالقوة العلمية يبصر منازل الطَرِيق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن

---

(١)زيادة الإيمان ونقصانه ، عبد الرازق بن عبد المحسن العباد ص١٧٤ ، دار القلم والكتاب ط١ ، ١٤١٦هـ ، الرياض

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ٦٠/١ – ٦٥ ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض

(٣)الفتاوي ، شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٣/٧

(٤)الفوائد ، ابن القيم ص٦٠ ، المكتبة القيمة ، ط١ ، ١٤٠٠هـ

الطَرِيق الموصل ... وبالقوة العملية يسير حقيقة بل السير هو حقيقة القوة العملية فإن السير هو عمل المسافر"[١]

ويقول الإمام محمد بن عبد الوهاب_رحمه الله :

"اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل :

الأولى : العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة

الثانية : العمل به

الثالثة : الدعوة إليه

الرابعة : الصبر على الأذى فيه"[٢]

و بالتأمل فإن المسألة الثالثة والرابعة التي ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب_رحمه الله_تدخل في الدرجة الثانية التي ذكرها الإمام ابن القيم _رحمه الله_

وبهذا يتبين أن العلم والعمل به هما الوسيلة الأولى لتحصيل الربانية .

وسأحاول ذكر بعض الوسائل التي تغرس الربانية في النفوس وهي داخلة ضمن الوسيلتين السابقتين

١- الإخلاص :

يمكن تعريف الإخلاص بأنه هو التبري عن كل ما دون الله تعالى[١]

---

(١) طريق الهجرتين ، ابن القيم ص١٨٣

(٢)الاصول الثلاثة وأدلتها ، الإمام محمد بن عبد الوهاب ص٥ ، مكتبة الشباب ط١ ، ١٣٨٧هـ ، مكة المكرمة

إن الإخلاص لله_عز وجل_من أهم سباب غرس الربانية في النفوس فبدونه لا يقبل العمل فهو أحد شرطي قبول العمل[٢] قال الله تعالى : " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[٣]

وقال سبحانه : " أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ"[٤]

وقال سبحانه مخاطبا رسوله محمداً ﷺ وآمراً إياه أن يخاطب الأمة بذلك " قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ"[٥]

وفي الحديث القدسي يبين الله عز وجل أنه أغني الشركاء عن الشرك ، فيقول سبحانه "أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من أشرك معي أحداً غيري تركته وشركه"[٦]

لما كان المرء قاصدا بعمله الله تعالى وغيره ، كان قد جعل لله شريكا فإذا كان كذلك فالله تعالى هو الغني على الإطلاق ، و الشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك[٧]

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ص١٥٤-١٥٥ ، دار المعرفة ، بيروت .

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ، ابن سعدي ص٧ ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٩ ، الرياض

(٣) سورة البينة آية ٥

(٤) سورة الزمر آية ٣

(٥) سورة الزمر آية ١١

(٦) صحيح مسلم ،كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله ، رقم الحديث ٢٩٨٥

(٧) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص٥٢٧ إشراف: محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ،ط٦ ، ١٤٠٥هـ ، بيروت ، دمشق

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إنما الأعمال بالنيـــات . وإنما لكل أمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورســـوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"[١]

ففي هذا الحديث بيان أن مدار الأعمال على النية فمن نوى فعل الخير وقصد ما يقرب إلى الله فله الثواب والجزاء الكامل ومن توجهت نيته إلى غير هذا المقصد العظيم فهو بحسب نيته ولذلك عدَّ العلماء هذا الحديث ثلث الإسلام وبعضهم عدَّه ربعه[٢]

قال الإمام ابن المبارك –رحمه الله تعالى– مبينا أهمية النية : "رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية"[٣]

وقال الإمام الحسن البصري– رحمه الله – "لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يفســـد عمله فلا غنى بالعبد عن معرفة ما أمرنا باتقائه من الرياء وغيره"[٤]

وعن زيد الشامي_رحمه الله_ قال " إني لأحب أن تكون لي نية في كل شئ حتى فـــي الطعام والشراب"[٥]

إن من أهم وسائل غرس الربانية في النفوس إخلاص العمل لله تعالى وإلا هلك المـــرء وعرض نفسه لفساد ربانيته في الدنيا والآخرة فلا يحصل على شئ من خيراتها و مما يدل على ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال سمعت رسول الله ﷺ : "إِنَّ

---

(١)صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي حديث رقم (١)

(٢) فتح الباري ١١/١

(٣) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ٢٥/١ ، المؤسسة السعيدية ، الرياض

(٤) الرعاية لحقوق الله ، المحاسبي ص١٦٠ تحقيق : أحمد عطا . عن الأمر بالمعروف ، د . المسعود ٢٥٩/٢

(٥) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ٢٤/١

أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"(١)

فهنا مع عظم هذه الأعمال المذكورة في الحديث إلا أنها كانت وبالا على أصحابها لفساد نيتهم وفي المقابل نجد أعمالا محببة إلى النفس ومع ذلك يؤجر الإنسان عليها لصلاح

نية أصحابها

ففي الحديث عن سعد بن أبي وقاص "إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ"(٢)

---

(١) الجامع الصحيح ، مسلم بن حجاج النيسابوري ٤٧/٦ كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ،دار الجيل ،دار الآفاق الجديدة ، بيروت.

(٢) صحيح البخاري ٢٠/١،ح٥٦ ،كتاب الإيمان باب ما جاء إن الأعمال بالنيات والحسبة ولكل أمرئ ما نوى . صحيح مسلم ١٢٥٠/٣ ،ح١٦٢٨، كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " ولك في جماع زوجتك أجر : قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر"[١]

إن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب كما قال تعالي : "كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ"[٢] ففيها قراءة سبعية بكسر اللام [٣] فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعا له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك[٤]

و بهذا يتبين أن الرياء مع كونه مُذْهبا لأجر العمل فهو من أعظم المعاصي فلم يذهب به العمل فحسب بل صاحب ذلك الإثم العظيم على فاعله فلا فائدة يجنيها المرائي من ريائه.

٢- معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته

إن معرفة الله_عز وجل_ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في الكتاب والسنة

والحرص على فهم معانيها و مدلولاتها والتعبد لله بها لهو من أعظم السبل و أفضل الطرق الموصلة إلى الربانية

---

(١) اخرجه مسلم في صحيحه ٨٢/٣ ، ح٢٣٧٦ ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف .

(٢) سورة يوسف آية ٢٤

(٣) معجم القراءات القرآنية ، د. أحمد عمر ، د. عبدالعال مكرم ص٤٣٨ ، عالم الكتب ،ط٣ ، ١٩٩٧م

(٤) الحسنة والسيئة لابن تيمية ص٩٣

فعن أبي هريرة ﷺ "عن النبي ﷺ أنه قال : "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة"[١]

أي من حفظها وفهم معانيها واعتقدها وتعبد لله بها دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته[٢] وقد ذكر الإمام ابن القيم _رحمه الله_لإحصائها ثلاث مراتب

المرتبة الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها

المرتبة الثانية : فهم معانيها ومدلولاتها

المرتبة الثالثة : دعاء الله بها وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة[٣]

وقد تناول الإمام ابن سعدي_رحمه الله تعالى _الفوائد العظيمة التي يجنيها العبد من وراء تعلم أسماء الله وصفاته وأفعاله وتقديسه عن النقائص وهي على النحو التالي:

١- أن هذا العلم أشرف العلوم على الإطلاق وحصوله للعبد من أشرف المواهب

٢- أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له وهذا عين سعادة العبد ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣٥٤/٥ ، كتاب الشروط ، باب ١٧ المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله رقم ٢٧٣٦

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، ابن سعدي ص٢٦

(٣) بدائع الفوائد ٢١٥ ، تحقيق :صالح اللحام وخلدون خالد ، الدار العثمانية ، عمان ، ط١ ، ١٤٢٦هـ

٣- أن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه وهذه غايتهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خُلــق له العبد وتركه وتضييعه إهمال لما خُلق له . وقبيح بعيد لم تزل نعم الله عليه متــواترة وفضله عليه عظيم من كل وجه أن يكون جاهلا بربه معرضا عن معرفته .

٤- أن أفضل أركان الإيمان وأصلها الإيمان بالله وليس الإيمان مجرد قول باللسان من غير معرفته بربه سبحانه بل حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين وبحسب معرفته بربه يكــون إيمانــه فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص نقص وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه عز وجل

٥- إن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها حتى إن العارف به سبحانه حقيقــة المعرفــة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته فأفعاله دائرة بين العدل والفضــل والحكمــة . وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله[١]

إن حاجة العبد إلى معرفة الله تعالى أعظم من كل حاجة وانتفاعه بذلك هو أعظم فائدة والتعرف إلى الله عز وجل إنما يكون بمعرفة أسمائه وصفاته

قال الإمام ابن القيم _رحمه الله تعالى : "وليست حاجة الأرواح قط إلى شئ أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها ومحبته وذكره والابتهاج به وطلب الوسيلة إليــه والزلفــى عنده ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه فكلما كان العبد بها أعلم كان بــالله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٢٤/١-٢٥

أعرف وله أطلب وإليه أقرب وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد ، والله ينزل العبد من نفسه حيث يُنزله العبد من نفسه"[١]

إن أسماء الله الحسنى لكل واحد منها معنى خاص وله على النفس البشرية تأثيره المعين وتجتمع هذه المعاني في قلب المؤمن لتحدث معرفة متكاملة متوازنة فيتعبد لله بها جميعا دون أن يحجب أو يغفل بعضها فعلى سبيل المثال رجاء الله والخوف منه لابد من اجتماعهما في قلب المؤمن دون أن ينفرد أحدهما بالتأثير قال الله تعالى في الجمع بين الخوف والرجاء في سياق مدحه لبعض أنبيائه : " إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ "[٢]

ولذلك نبه علماء الأمة إلى أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافي كمال التوحيد كما أن القنوط من رحمة الله كذلك[٣]

ومن هنا لابد بجانب التعبد لله بصفات الرحمة والإحسان والكرم أن يتعبد له أيضا بصفات العدل والانتقام والغضب وهكذا يكون التعبد لله بسائر أسمائه وصفاته دون أن يحجب بعضها بعضا

قال الإمام ابن القيم _رحمه الله : "والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له وتعبدهم له بأسمائه الحسنى إذ كل اسم فله تعبد خاص به علما ومعرفة وحالا وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر كمن يحجبه التعبد

---

(١) الكافية الشافية ، ابن القيم ص١٧ ، عني بها : عبد الله العمير ، دار ابن خزيمة ، ط١ ، ١٤١٦هـ ، الرياض

(٢) سورة الأنبياء آية ٩٠

(٣) فتح المجيد ، عبد الرحمن آل الشيخ ص٣١٨ ، خرج أحاديثه / محمد عبد العظيم ، دار الآفاق العربية ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ، القاهرة

باسمه "القدير" عن التعبد باسمه "الحليم الرحيم" أو يحجبه اسمه "المعطي" عن عبودية اسمه "المانع" أو التعبد بأسماء "التودد والبر واللطف والإحسان" عن أسماء "العدل والجبروت والعظمة والكبرياء" ونحو ذلك"[1]

وقد توسع الإمام ابن القيم _رحمه الله_ في هذا الكلام في موطن آخر مبينا أثر التعرف على أسماء الله سبحانه وتعالى على القلب وسلامته واتزانه وسيره نحو ربه فيقول _رحمه الله : "القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال فتخضع الأعناق وتتكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغا إلا من محبته ....

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره وكلما قوي الرجاء جد في العمل .....

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقبضت أعنة رعونتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر ....

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٤٦٤/١ حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه : أحمد الرفاعي وعصام الحرستاني ، دار الجيل ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، بيروت . أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ، د. عبد الله الجربوع ٤٧٦/٢

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم انبعثت من القلب قوة الحياء فيستحيي من ربه أن يراه على ما يكره أو يسمع منه ما يكره أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقي حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى .

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضى به وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله ويختاره له

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته

والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار في

قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشه وقوته وحدته"[1]

وهكذا كلما زاد علم العبد بأسماء الله وصفاته والتعبد لله بها كلما زاد إيمانه وربانيته وقربه من مولاه سبحانه وتعالى

---

(١) الفوائد ، ابن القيم ص٩١ -٩٢ تخريج وحواشي : أحمد راتب عرموش ، دار النفائس ، ط٢ ، ١٤٠١هـ ، بيروت ، مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ١٢٧/٢-١٢٨ ، مؤسسة الأندلس ، مصر ، زمزم ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤م .

حتى إن من المؤمنين من يقوده نوره الحاصل من نور الوحي والنبوة ونور الفطرة نور آخر يضمحل فيه كل نور سواه وهو نور الصفات العليا "فمشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات إلى العين ذلك لاستيلاء اليقين عليها وانكشاف حقائق الإيمان لها حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزا وإلى استوائه عليه كما أخبر به سبحانه وتعالى في كتابه وكما أخبر به عنه رسول الله ﷺ يدبر أمر الممالك ويأمر وينهى ويخلق ويرزق ويميت ويحي ويقضي وينفذ ويعز ويذل ويقلب الليل والنهار ويداول الأيام بين الناس ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتي بأخرى .

والرسل من الملائكة –عليهم السلام– بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات نافذه بحسب إرادته ومشيئته ...."[1] عزوجل.

ومن عرف الله وعرف أسماءه وصفاته وعرف موجب حمده وحكمته أحبه[2] وسلم من ظن السوء بالله تعالى[3] "وأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق وظن السوء فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ..... فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم"[4]

---

(١) الوابل الصيب ،ابن القيم ص١٧٦ - ١٧٧

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها ، ابن تيمية ص٨٤-٨٥

(٣) زاد المعاد ، ابن القيم م١ ج١٠٣/٢

(٤) زاد المعاد ،ابن القيم م١ج١٠٥/٢

ومن نماذج ظن السوء بالله تعالى القنوط من رحمة الله تعالى واليأس من روحه وكذا من جوز على الله أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه وكذا من ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصا لوجهه الكريم ويبطله عليه بلا سبب من العبد[١]

٣- قراءة القرآن الكريم بتدبر

القرآن الكريم هو كتاب الله _عز وجل_ومأدبته أنزله بعلمه فيه الخير كله فهو شفاء للصدور ورحمة ونور وكتاب مبين وهدى وفرقان بين الحق والباطل وبرهان وحجة بينة وذكر مبارك وموعظة وروح وتذكرة[٢]

قال الله تعالى : " قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ"[٣]

وقال سبحانه : " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ"[٤]

وقال سبحانه : " قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ"[٥]

وقال سبحانه : " قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ"[٦]

وقال سبحانه : " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا"[٧]

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر زاد المعاد لابن القيم م١ج٢/١٠٣-١٠٦

(٢) لمزيد من أوصاف القرآن راجع الإتقان في علوم القرآن ٥٠/١ وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني ، المكتبة الثقافية – بيروت . وإلى الهدى والبيان في أسماء القرآن لصالح بن إبراهيم البليهي ص٤١ -٤٣ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط١ ، ١٣٩٧هـ

(٣) سورة يونس آية ٥٧

(٤) سورة الإسراء آية ٨٢

(٥) سورة فصلت آية ٤٤

(٦) سورة المائدة آية ١٥

(٧) سورة الفرقان آية ١

وقال سبحانه : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ"[١]

وقال سبحانه : "فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ"[٢]

وقال سبحانه : " وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ"[٣]

وقال سبحانه : "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا"[٤]

وقال سبحانه : " وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ"[٥]

إن الأوصاف السابقة التي وصف الله عز وجل بها القرآن الكريم لتجعلنا نعلم أن من أقوى الطرق لتحصيل الربانية هو قراءة هذا القرآن وتدبره والإكثار من ذلك،فهو يخاطب في الناس عقولهم وقلوبهم معا ويعرف بالله سبحانه وتعالى ويستثير فيهم عوامل الرغبة والرهبة جميعا فهو يقرن الوعد بالوعيد ويرغب في الجنة ويبين صفة أهلها وينذر من النار ويذكر أسباب دخولها وفيه القصص والأمثال ، فيه الإعجاز والجدل ....

وما أحسن قول عثمان بن عفان ﷺ : "لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله"[٦]

---

(١) سورة النساء آية ١٧٤

(٢)سورة الأنعام آية ١٥٧

(٣) سورة الأنبياء آية ٥٠

(٤)سورة الشورى آية ٥٢

(٥) سورة الحاقة آية ٤٨

(٦) الجواب الكافي ، ابن القيم ص ٢٨٥

وقد جاءت السنة تبين فضل قراءة القرآن الكريم فعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف"(١)

وعلى قارئ القرآن إذا أراد الانتفاع به أن يجمع قلبه عند تلاوته وسماعه وأن يلق سمعه وأن يحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه(٢)

وأن يتدبره ويتفهمه فبتدبره وتفهمه يعمق تأثيره وتزداد آثاره من الأعمال الصالحة وترك الآثام والفجور وتورق شجرة التدبر للقرآن الإيمان العميق واليقين الراسخ فتظهر على أيدي أصحابها العجائب كما ظهر ذلك في عهد الرسول ﷺ والصحابة الكرام فقد فتحوا القبوب و البلاد بهذا الإيمان وذلك الدين عندما تدبروا القرآن وعملوا بما جاء فيه .

قال الله_عز وجل_ آمراً بذلك: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"(٣)

وقال سبحانه : " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"(٤)

وقال سبحانه : " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"(٥)

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ١٧٥/٥ وصححه الألباني ، كتاب فضائل القرآن ، باب فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر

(٢) الفوائد ، ابن القيم ، ص٥ ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه : بشير عون مكتبة دار البيان – سوريا ، مكتبة المؤيد – الطائف ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م

(٣) سورة النساء آية ٨٢

(٤) سورة ص آية ٢٩

(٥) سورة محمد آية ٢٤

قال العلامة ابن سعدي–رحمه الله– في تفسير آية النساء السابقة : "يأمر تعالى بتدبر كتابه وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك

فإن في تدبر كتاب الله مفتاحا للعلوم والمعارف وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم

ويه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته فإنه يُعَرِّف بالرب المعبود ومالـه من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص ، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه .

ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة والطريق الموصلة إلى العذاب وصفة أهلها ومالهم عند وجود أسباب العقاب وكلما ازداد العبد تأملا فيه ازدادا علما وعملا وبصيرةً[١]

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"[٢][٣]

قال عبدالله بن مسعود–رضي الله عنه : "لا تهذوا القرآن هذّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة"[٤]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السَّعدي ١١٢/٢

(٢) سورة المائدة آية ١١٨

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٧ رقم الحديث ٢١٥٧٨ ، وقال بن شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن

(٤) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٢٨٩/١ ، مؤسسة الأندلس

وعن أبي جمرة –رحمه الله– قال : "قلت لابن عباس : إني سريع القراءة إنـــي أقــرأ القرآن في ثلاث .

قال:لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القــرآن كما تقرأ"(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله : " والقرآن شفاء لما في الصدور ومن في قلبــه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمــراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والادراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة مــا يوجــب صلاح القلب"(٢)

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله : "وبالجملة فلا شئ أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشــكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن جميع الصــفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فــإذا قــرأه بتفكر حتى مرّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مــرة ولــو ليلــة

---

(١)المصدر السابق ٢٨٩/١ - ٢٩٠

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها ، ابن تيمية ص٥، المطبوع مع التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ

فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن ....."[١]

قال الآجري –رحمه الله : "ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل وعرف عظيم سلطانه وقدرته وعرف عظيم تفضله على المؤمنين وعرف ما عليه من فرض عبادته فألزم نفسه الواجب ، فحذر مما حذره مولاه الكريم ورغب فيما رغبه ، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاءً فاستغنى بلا مال وعزَّ بلا عشيرة وأنس مما يستوحش منه غيره"[٢]

ومن تيسير الله تعالى أن القرآن قد استحوذ على مشاعر سلفنا الصالح واستأثر بعنايتهم التي لم يحط بمثلها كتاب من قبل ولا من بعد [٣] "وليس في الدنيا كتاب توافرت على فهمه وتفسيره كبار العقول في مختلف الأعصار والأمصار من شتى الثقافات والمعارف مثلما يسر الله للقرآن العظيم"[٤]

فيختار المسلم من التفاسير ما يناسبه ممن يوثق في عقيدته ليكون معينا له على فهم كتاب ربه سبحانه وتعالى

وبالجملة فإن قراءة القرآن بتدبر تزيد في إيمان الإنسان وتقويه وتقربه إلى ربه وتغرس بذور الربانية فيه وتسقيها .

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ابن القيم ٢٨٩/١ ، مؤسسة الأندلس

(٢) أخلاق حملة القرآن محمد الآجري ص١١١ ، دراسة وتحقيق وتعليق : د. محمود علي ، مكتبة النهضة ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، بريدة .

(٣) مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح ص٩-١٠ ، دار العلم للملايين ط١٠ ، ١٩٧٧ م ، بيروت

(٤)الخصائص العامة للإسلام ، د. القرضاوي ص١٩٦

قال الله تعالى : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"(١)

ويتبع قراءة القرآن وتدبره العمل به فإنهم جمعوا بين تعلم القرآن وفهمه والعمل به . قال ابن مسعود ﷺ : "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن

والعمل بهن"(٢)

ومثله ما قاله أبو عبد الرحمن السلمي من كبار التابعين رحمه الله(٣)

ولهذا قال بعض السلف : ما جالس أحد القرآن فقام عنه سالما بل إما أن يربح أو يخسر ثم تلا قوله تعالى " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا "(٤)(٥)

٤- النظر في سنة الرسول ﷺ وفقهها :

السيرة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وهي الشارحة للقرآن الكريم المبينة له

---

(١) سورة الأنفال آية ٢

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٨٠/١ تحقيق محمود شاكر ، خرج أحاديثه / أحمد شاكر . قال الشيخ أحمد شاكر : هذا إسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ولكنه مرفوع معنى دار المعارف – مصر

(٣) المصدر السابق ٨/١

(٤) سورة الإسراء آية ٨٢

(٥)جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ١٧١/٢

قال الله تعالى : "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "(١)

وقال تعالى : "فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(٢)

وقال تعالى : "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"(٣)

وقال ﷺ "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي"(٤)

وقال عليه الصلاة والسلام : "فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"(٥)

فالرسول ﷺ مبين عن الله عز وجل وبيانه على ضربين :

---

(١) سورة النحل آية ٤٤

(٢) سورة النور آية ٦٣

(٣) سورة الحشر آية ٧

(٤) موطأ مالك رواية يحي الليثي ٨٩٩/٢ حديث ١٥٩٤ كتاب القدر ، باب النهي عن القول بالقدر

(٥) رواه أبو داوود في السنن ٣٢٩/٤ حديث رقم ٤٦٠٩ كتاب السنة ، باب لزوم السنة . قال الألباني : صحيح

١- بيان لمجمل في الكتاب كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها وكبيانه لمقادير الزكاة والواجب فيها وبيانه كيفية الحج ونحو ذلك .

قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – : "إن السنة تفسر الكتاب وتبينه"

٢- بيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرآة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحمر ٌالأهلية وكل ذي ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك(١)

وإذا كانت السنة بهذه المثابة فينبغي للمؤمن الصادق الاستفادة منها في تقوية ربانيته وتعميق إيمانه وترسيخ يقينه

إن السنة النبوية تطبيق حي للقرآن الكريم فيجد الإنسان فيها صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة كي يجعل منها نظاما يتمسك به ويسير عليه ولا ريب في أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحي الحياة فإنه سيجد كل ذلك في حياة رسول الله ﷺ – على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها. قال الله تعالى : " لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ"(٢)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي م١ ج١ /٣٨-٣٩

(٢) سورة الأحزاب آية ٢١

والاقتداء برسول الله ﷺ واتباعه دليل على محبة العبد ربه وهذا يورثه محبة الله[1] لـه ومغفرته قال الله عز وجل " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"[2]

وفي سنة الرسول ﷺ وفهم شخصيته من خلال حياته التي عاشها تقوية لليقين بأن محمداﷺ ليس عبقريا رفعه ذكاؤه وعقله وإنما هو رسول الله حقا أيده الله –عز وجل– بما يدل على صدقه في دعوته من المعجزات وغيرها

والسنة النبوية فيها العلم الغزير والفقه النافع سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة والتوحيد أو الفقه والأحكام أو الأخلاق والآداب أو في السياسة والتربية وغيرها .

فبهذا يزداد علم المؤمن فيزداد يقينه وإيمانه وتبتعد عنه الشبهات ويكون عمله على نور وهدى ويقف عند حدود الله تعالى .

والسنة فيها العلم بالدعوة من حيث منهجها وأساليبها ووسائلها وصفات الداعية وواجباته وكيفية التعامل مع المدعو ، وكذا فيها طرائق التربية والتعليم فقد كان رسول الله ﷺ سيد الدعاة ورأس المربين

وهذا لا شك في أنه يعين على القيام بواجب من واجبات الإسلام وهو الدعوة إلى الله ومن ثم فهو يزيد في ربانية المؤمن ويجعله يعمل في هذا الميدان على بصيرة سواء كان هذا المؤمن فردا عاديا أو أميرا أو حاكما.

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، د. مهدي رزق الله أحمد ص١٤ ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م ، الرياض

(٢) سورة آل عمران آية ٣١

ولما كان طريق الدعوة يحتاج إلى صبر سواء في طلب العلم الذي سيدعو له أو في العمل به أو تبليغه فإن الإنسان بحاجة ماسة إلى من يقوي عزيمته ويثبت قدميه ولن يجد الداعية –بعد القرآن الكريم– خيراً مما حفلت به السنة النبوية من مواقف في مجال الصبر على مشاق الدعوة إلى الله –عز وجل– ومعرفة كيف واجه– صلوات الله وسلامه عليه– العوائق التي واجهت الدعوة وذلل المشكلات التي لقيتها .

كما أن الإنسان إذا اطَّلع على المجهود الذي بذله صلوات الله عليه في مجال الدين عامة فإنه ينظر إلى عمله بازدراء وانتقاص مما يُحفزه –إن شاء الله تعالى– لمزيد من العمل لله عز وجل– من جهة ومن جهة أخرى يتخلص بإذن الله تعالى من داء العُجب ، ذلك الداء العضال الفتاك

ومن هنا يتبين لنا أهمية السيرة النبوية وحاجة الخلق إليها بعد القرآن الكريم فوق كل حاجة واضطرارهم إليها فوق كل ضرورة كيف لا وقد سدَّ الله –عز وجل– الطرق إلى الجنة إلا طريقه صلوات الله وسلامه عليه .

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله : "ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به فهو الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها فأي ضرورة و حاجة فُرضت

فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسول كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي وما لجرح بميت إيلام

وإذا كان سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه والناس في هذا مستقل ومستكثر ومحروم والفضل بيد الله يؤته من يشاء والله ذو الفضل العظيم"(١)

ويتحدث الإمام ابن سعدي –رحمه الله تعالى– عن كون معرفة النبي ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العظيمة سبب من أسباب الإيمان لمن لم يؤمن وزيادته عند المؤمنين فيقول :

"ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه معرفة النبي ﷺ ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه ، وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق كما قال تعالى :"أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ"(٢) أي فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن لم يؤمن . وزيادة الإيمان ممن آمن به .

---

(١) زاد المعاد ، ابن القيم م١ ج١ /١٥

(٢) سورة المؤمنين آية ٦٩

قال تعالى حاثا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان " قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"(١)

وأقسم سبحانه وتعالى بكمال هذا الرسول ، وعظمة أخلاقه ، وأنه أكمل مخلوق – بقوله : "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"(٢)

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة . وشمائله الجميلة ، وأقواله الصادقة النافعة وأفعاله الرشيدة . فهو الإمام الأعظم والقدوة الأكمل قال الله تعالى : "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"(٣) وقال الله –عزو جل– في وجوب امتثال أوامره واجتناب نواهيه:"وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"(٤)

وقد ذكر الله –سبحانه و تعالى– عن أولى الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا : "رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا" وهو هذا الرسول الكريم الذي "يُنَادِي لِلْإِيمَانِ" بقوله وخلقه وعمله ودينه ، وجميع أحواله "فَآمَنَّا"(٥) أي إيمانا لا يدخله ريب .

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله ، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات فقالوا : "رَبَّنَا إِنَّنَا

---

(١) سورة سبأ آية ٤٦

(٢) سورة القلم الآيات من ١ - ٤

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١

(٤) سورة الحشر آية٧

(٥) سورة آل عمران آية ١٩٣

سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ"[١]

ولهذا كان الرجل المنصف الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق بمجرد ما يراه ويسمع كلامه يتبادر إلى الإيمان به ﷺ ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم مجرد ما يرى وجهه الكريم يعرف أنه ليس بوجه كذاب"[٢]

٥- طريق الذكر :

ذكر الله عز وجل طريق قوي لغرس الربانية في النفوس وتعميق جذورها في القلوب فتورق أغصانها وتطيب ثمارها فذكر الله سبب لطمأنينة القلب

قال الله تعالى " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[٣]

أي حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشئ سوى ذكره فإنه لا شئ ألذ للقلوب ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له[٤]

وذِكر الله سبب لأن يذكر الله العبد قال تعالى " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"[٥]

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٣

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، ابن سعدي ص٢٩-٣٠

(٣) سورة الرعد آية ٢٨

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ١٠٨/٤

(٥) سورة البقرة آية ١٥٢

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله تبارك وتعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ..... الحديث"[١]

والإكثار من الذكر سبب للفلاح قال الله تعالى : "وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[٢]

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تحث على الذكر وتبين علو درجته فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال : "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت"[٣]

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم" ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .قال: ذكر الله عز وجل"[٤]

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " سبق المفرِّدون قالوا : وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات"[٥]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله : مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل به العبد نفسه في الجملة"[٦]

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣٤٨/١٣ باب ١٥ قول الله تعالى "ويحذركم الله نفسه" حديث ٧٤٠٥

(٢) سورة الجمعة آية ١٠

(٣) صحيح البخاري المطبوع من فتح الباري ٢٠٨/١١ باب ٦٦ فضل ذكر الله عز وجل حديث ٦٤٠٧

(٤) أخرجه الترمذي ٤٩٥/٥ ، ح٣٣٧٧ ، كتاب الدعوات ، باب منه ، قال الألباني : صحيح

(٥) أخرجه مسلم ٦٣/٨ ، ح ٦٩٨٤ كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، باب الحث على ذكر الله تعالى

(٦) عن كتاب رمضان – دروس وعبر – تربية وأسرار - ، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٥٧ – ١٥٨ دار بن خزيمة ، ط١ ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، الرياض

والذكر سبب لمعية الله تعالى والقرب منه وولايته

يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى : "إن الذاكر قريب من مذكوره ومذكوره معه وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق ....والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شئ وهي أخصٌ من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة وإنما تعلم بالذوق"(١)

إن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب ويغذيها ويبنيها وكلما ازداد العبد ذكرا لله قوي إيمانه ، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر فمن أحب الله أكثر من ذكره ، ومحبة الله هي الإيمان بل هي روحه(٢)

ولما كان الذكر بهذه المنزلة حرص الإسلام على ربط المسلم به سواء منه من كان مخصوصا بمناسبات معينة أو ما كان مطلقا وقد اهتم علماء الأمة بهذا الجانب وألفوا فيه المؤلفات(٣)

وإذا نظرنا إلى المباحث التي تذكر المناسبات المعينة والذكر الخاص بها لوجدنا أنها تربط الإنسان بذكر ربه سبحانه وتعالى ربطا قويا مثل الأذكار المتعلقة باليقظة والنوم والصباح والمساء ودخول المنزل والخروج منه والذهاب إلى المسجد ودخوله والخروج

---

(١) الوابل الصيب ، ابن القيم ص ١٨٥-١٨٧

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ابن سعدي ص٣٢

(٣) مثل كتاب الأذكار للنووي ، والكلم الطيب لشيخ الإسلام ابن تيمية

منه والأكل والشرب والـــركوب والـــــــــــسفر ودخــول الـــــــــــخلاء والـــــــــخروج منه وعند سماع الرعد وعـــــــنـــــــد

نزول الغيث وعند الاستخارة وعند الكرب والهم والحزن.....

بل نجد أن لحظة الاستمتاع بالزوجة لا يترك الإسلام العبد فيها بدون ذكر بل يـــــأمره بالذكر قبل البدء بذلك ويرتب عليه الفضل العظيم فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : "لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنـــب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا"[١]

إن الذكر يورث القُرب من الله –عز وجل– فعلى قدر ذكر العبد لله عز وجـــل يكـــون قربه منه وعلى قدر غفلته يكون بعده منه[٢]

وهو يورث المراقبة حتى يدخل صاحبه في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان[٣]

وهو يورث حياة القلب قال شيخ الإسلام ابن تيمية "الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء"[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٧/١ ، ح١٤١ ، كتاب الوضوء ، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع

(٢) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٢٣

(٣) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٢٣

(٤) عن الوابل الصيب ، ابن القيم ص٢٤

والذكر نور للذاكرين في الدنيا والقبر والآخرة فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى[١] وأعظم الخلق نورا أقربهم إليه وأكرمهم عليه[٢] والذكر يلين قسوة القلب[٣] ويطرد الشياطين[٤]

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن للذكر أكثر من مائة فائدة عدد منها ثلاثا وسبعين فائدة وتكلم وفصل في أكثرها[٥]

والناس في الذكر على أربعة أقسام كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية

الأولى : الذكر بالقلب واللسان وهو المأمور به

الثاني : الذكر بالقلب فقط فإن كان مع عجز اللسان فحسن وإن كان مع قدرته فتركٌ للأفضل

الثالث : الذكر باللسان فقط وهو كون اللسان رطبا بذكر الله ويقول الله تعالى في الحديث القدسي أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه

الرابع : عدم الأمرين وهو حال الأخسرين[٦]

---

(١) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٤٤

(٢) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٧٢

(٣) الوابل الصيب ، ابن القيم ص ٢٠٠

(٤) الوابل الصيب ، ابن القيم ص٢٣٣

(٥) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٢٢- ٢٣٣

(٦) عن كتاب رمضان ، محمد الحمد ص١٦٣

٦- أركان الإسلام العملية

من طرق غرس الربانية أركان الإسلام العملية فمن ذلك الصلاة التي تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات لتصل العبد بربه سبحانه وتعالى فلا ينشغل بأعمال الحياة اليومية عن ربه تعالى .

وإن روح الصلاة النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب وجمعه عليها فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال فإذا كان الإنسان غافلا عن مناجاة ربه كان اللسان يتحرك بحكم العادة فما أبعد عن هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ الإيمان[١]

وأصل الخشوع كما قال ابن رجب : لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له"[٢]

إن حضور القلب في الصلاة وكون المصلى يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله من القراءة والذكر والدعاء فيها ومن القيام والقعود والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه[٣]

والصلاة سبب أيضا لتكفير الذنوب التي تضعف الربانية

قال ﷺ : "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر"[٤]

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ، ابن قدامة المقدسي ص٣٥ ،ضبطه وخرج أحاديثه أبوعبد الرحمن سعيد معشاشة ، دار التوفيق – دمشق ، ط١ ١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م

(٢) الخشوع في الصلاة ، ابن رجب ص١٧ ، مكتبة الحرمين . كيف تخشعين في الصلاة ، رقية المحارب ، مكتبة ذات النطاقين – الرياض ، ط١ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، ابن سعدي ص٣٤

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٤/١ ، ح٥٧٢ ، كتاب الطهارة ، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات

كما أن الصلاة تنهي عن الفواحش والمنكرات كما قال الله تعالى "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ"(١)

ومن ذلك الزكاة التي تنمي الإيمان وتزيده وهي برهان كما قال ﷺ " والصدقة برهان"(٢)

والزكاة ابتلاء من الله عز وجل لمن يدعي محبته وذلك بإخراج محبوبه فإذا فعل ذلك طهر نفسه من الشح والبخل وزكاها وشكر نعمة ربه عليه(٣)

قال الله تعالى : "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا"(٤) أي تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة وتزكيهم أي تنميهم وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي وتنمي أموالهم(٥)

ومن ذلك الصيام يكف فيه المسلم نفسه عن شهوة البطن والفرج وفي هذا تربية على التقوى .

قال الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"(٦)

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٤٥

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٣/١ ، ح٢٢٣ ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء

(٣) مختصر منهاج القاصدين ، ابن قدامة ص٤٥

(٤) سورة التوبة آية ١٠٣

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٢٩٢/٣

(٦) سورة البقرة آية ١٨٣

ومن شرفه في الدين وعِظم مكانته أضافه الله –عز وجل– إلى نفسه ففي الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ يقول النبي ﷺ : "قال الله كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به"[١]

والصائم يؤمر بحفظ جوارحه فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "إذ كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث[٢] ولا يصخب[٣] فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم"[٤]

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"[٥]

والصيام سبب لتكفير الذنوب المُضْعفة للربانية فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدم من ذنبه ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه"[٦]

ومن ذلك الحج الذي يترك فيه الحاجُّ وطنه وأهله متجشما الصعاب والمشاق متجرداً من ثيابه المعتادة ملبيا ربه بتلبية نبيه محمد ﷺ "لبيك اللهم لبيك،لبيك لا شريك لك لبيك،إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك"[١]

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١١٨/٤ ، كتاب ٣٠ الصوم باب ٩ هل يقول إني صائم إذا شتم ، حديث رقم ١٩٠٤

(٢) الرفث هنا الكلام الفاحش وهو يطلق على هذا وعلى الجماع وعلى مقدماته وعلى ذكره مع النساء أو مطلقا ويحتمل أن يكون لما هو أعم منها [فتح الباري ١٠٤/٤]

(٣) الصخب : الخصام والصياح [فتح الباري ١١٨/٤]

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١١٨/٤ ، كتاب ٣٠ الصوم باب ٩ هل يقول إني صائم إذا شتم ، حديث رقم ١٩٠٤

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١١٦/٤ كتاب ٣٠ الصوم باب ٨ من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم

(٦) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١١٥/٤ ، كتاب ٣٠ الصوم باب ٦ من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية

والحج من الأعمال الفاضلة فعن أبي هريرة ﷺ قال : "سئل النبـــي ﷺ : أي الأعمـــال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : جهاد في سبيل الله . قيـــل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور[٢]"[٣]

كما أن الحج سبب لتكفير الذنوب والسيئات فعن أبي هريرة ﷺ قال سمعت النبـــي ﷺ يقول: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"[٤]

والعبادة في الإسلام تشمل هذه العبادات الأساسية التي بُنِي الإسلام عليها والتي وردت في حديث "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان"[٥]

كما تشمل العبادة بجانب هذه العبادات كل عمل صالح أريد به وجه الله تعالى من حسن الخلق والتبسم والكلمة الطيبة والسعي في طلب الرزق وملاطفة الأهل وعيادة المريض وإماطة الأذى عن الطريق ... إلى غير ذلك من أعمال البر فكلها تغرس الربانية فـــي النفوس وتقويها ما دام الإنسان يؤديها مخلصا لوجه الله تعالى وبهذا تتحول حياة المسلم كلها إلى عبادة كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ : "قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَمـــاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ"[٦]

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤٠٨/٣ ، كتاب ٢٥ الحج باب ٢٦ التلبية

(٢) المبرور : قال ابن خالويه : المبرور المقبول ، وقال غيره : الذي لم يخالطه شئ من الإثم ورجحه النووي [فتح الباري ، ابن حجر ٣٨٢/٣]

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣٨١/٣ ، كتاب ٢٥ الحج باب ٤ فضل الحج المبرور حديث رقم ١٥١٩

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣٨٢/٣ ، كتاب ٢٥ الحج باب ٤ فضل الحج المبرور حديث رقم ١٥٢١

(٥) أخرجه البخاري في صحيه ١٢/١ ، ح٨ ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم "بني الإسلام على خمس"

(٦) سورة الأنعام آيتي ١٦١-١٦٢

٧- التفكر في مخلوقات الله تعالى

الدين الإسلامي هو دين الحق الموافق للفطرة والعقل ولذلك نجد أن الإسلام يحث الإنسان على التفكر ويندب إليه ويدعوه إلى التأمل والنظر في آيات الله الباهرة ليصل العبد من خلالها إلى خالق هذا الكون ومبدعه والعلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله

قال الله تعالى : "اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"(١)

وقال الله تعالى : "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(٢)

وقال تعالى : " قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ"(٣)

---

(١) سورة الرعد الآيات ٢-٤

(٢) سورة لقمان آيتي ١٠ - ١١

(٣) سورة يونس آية ١٠١

فالنظر في المخلوقات والتأمل فيها مما يزيد إيمان المرء ويجعل قدمه راسخة فيه لما في هذه الموجودات من دلالة على قدرة خالقها وعظمته وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب ويبيّن سعة علمه وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا يعدها البشر ولا يحصونها الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره[١]

وعموما فالله سبحانه وتعالى إنما يذكر من مخلوقاته للدلالة عليه أشرفها وأظهرها للحس والعقل وأبينها دلالة وأعجبها صنعة كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والجبال والسحاب والمطر وغير ذلك من آياته التكوينية [٢]

وسنتأمل إن شاء الله تعالى في خلق الإنسان فقد حثّ الله –عز وجل– على ذلك في مواضع كثيرة من القرآن منها:

قوله تعالى "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[٣]

وقال سبحانه "أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ"[٤]

وقال عز وجل "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ"[١]

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، ابن سعدي ص٣١

(٢) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٢/٢٧٦-٢٧٧ ، مؤسسة الأندلس

(٣) سورة الذاريات آية٢١

(٤) سورة المرسلات الآيات ٢٠-٢٣

إن في خلق الإنسان من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه[٢]

فقد بدأ الله تعالى خلق آدم من سلالة من طين ثم جعل نسله من ماء مهين ثم سواه عز وجل ونفخ فيه الروح ليكون مخلوقا عجيبا؛ حيث يصبح ذا عقل ثاقب يستطيع أن ينظر في الكون؛ بإذن ربه –عز وجل– ويتعلم ويصل إلى الحقائق ويصنع العجائب فبعقله يكون الطبيب والمهندس والكيمائي والفيزيائي... ويخترع السيارات والطائرات والصواريخ والذرة وغيرها مما ينفع الإنسانية في حياتها المادية .

ولو نظرنا بتأمل إلى الإنسان لرأينا أن كل عضو من أعضائه يقوم بوظيفة معينة وإنه موضوع لغاية محددة مرسومة فالعين –مثلا– وضعت وصممت لتقوم بوظيفة الرؤية وكل أعضائها وأنسجتها وضعت وصممت لخدمة هذه الغاية ، والأذن صممت ووضعت لتقوم بوظيفة السمع وكل عضو من أعضائها صمم ليقوم بوظيفة خاصة تخدم هذا الغاية الكبيرة وهكذا كل عضو في جسم الإنسان رُسِمت له وظيفة محددة واضحة يقوم بها فمن الذي حدد الغايات وصنع كل جهاز وكيَّفه ليقوم بهذه الغاية؟ "فسبحان من خلق الإنسان وخلق أعضاءه من القلب والرئتين والمعدة و الأمعاء والكبد والكليتين واللسان والغدد والأيدي والأرجل والظهر والصدر وكلها واضحة الأهداف فدل على أن خالقه عالم بالغايات فخلق كل عضو ليقوم بتنفيذ هذه الغايات بدقة[٣] فسبحان ربي العليم.

---

(١) سورة يس آية ٧٧

(٢) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٢٩١/١

(٣) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ، د . فاضل السامرائي ص ٢٣ - ٢٤

ولو نظرنا إلى بعض جُزئيات في الجسم لظهرت لنا حكمة الله فمثلا الجلد لو حاولنا تخيل نقل جلد من مكان إلى مكان لرأينا عدم الانسجام وعدم القدرة على العمل فلو كان جلد رجلي الإنسان في رقة جلد شفتيه فكيف كان سيمشى على رجليه؟ ولو كان جلد جفنيه في غِلظَة جلد رجليه كيف كان يستطيع أن يفتح عينيه ويبصر طريقه ويتقى الأذى ؟[1]

ولو تأملنا الأعضاء لوجدنا أن الله –عز وجل– وضع كل عضو في موضعه المناسب فإنك لا تجد أن عينا نبتت لإنسان في ركبته أو يده أو قدمه فتتعرض للهلاك وتضعف عن الالتفات أو يداً ظهرت في رأسه[2]

وإذا نظرت إلى أي جزءٍ من أجزائك وليكن –مثلا– الفم فقد شقَّ الله سبحانه الفم للعبد في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه كما جعل الأذن رسولا مؤديا إليه ... ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هن جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤوسها وبيض لونها ورتب صفوفها كأنها الدرر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما اودعهما وهما الشفتان فحسّن لونهما وشكلهما

---

(١) أركان الإيمان ، وهبي الألباني ص٨٣

(٢) الإيمان ، عبد المحيد الزنداني وآخرون ص ٣٧ ، دار القلم ، ط٥ ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، دمشق وفيه أمثلة أخرى

ووضعهما وهيئتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ....[١]

وإذا نظرت إلى أنفك وجدته قد أُحكِم ليتناسب مع وظيفته فالهواء يدخل من ثقبين بين العينين وقد غطى العليم الحكيم هذين الثقبين بالأنف وجعل النصف الأعلى من الأنف عظما حتى لا تضغط الرياح على هذا الغطاء فيسد الثقبين فيمنع التنفس ، كما يشارك عظم الأنف في حماية العينين وفتح الأنف باستمرار لدخول الهواء وزود الأنف بمادة مخاطية تبطن جدار الأنف فتلتصق به الجراثيم والأتربة فيتصفى الهواء قبل دخوله ...ألا يشهد ذلك كله أنه من صنع العليم الحكيم[٢] إلى غير ذلك من أجزاء الجسم البشري.

ومن عجيب ما في الإنسان تصويره في الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشرا سويا مستوفيا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفى الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين[٣]

وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[٤]

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٢٩٥/١ -٢٩٦ ، مؤسسة الأندلس ط١ ، ١٤١٤هـ ، مصر

(٢) الإيمان ، عبد المجيد الزنداني وآخرون ص٣٧ ، دار القلم ط٥ ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م ، دمشق

(٣) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٣٩٧/١

(٤) سورة الذاريات آية ٢١

ولو انتقل المتأمل من خلق الإنسان إلى غيره من الكائنات لبهرته عظمة الخالق وحكمة الموجد وهداية المنشئ وصدق الله العظيم القائل " صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ"[١] والقائل "وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى"[٢] والقائل : " مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ"[٣] أي ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل وما أحسن قول ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو[٤]

وفي هذا المعنى قال الشاعر :

وفي كل شئ له آية تدل على أنه الواحد[٥]

ولا نريد أن نسترسل في هذا الأمر فهو يطول ويطول[٦] ولكن نذكر هنا بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان

قال الله تعالى : " لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[٧]

---

(١) سورة النمل آية ٣٣

(٢)سورة الأعلى آية ٣

(٣) سورة تبارك آية ٣

(٤) شرح الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ص٣٧

(٥) المصدر السابق ص٣٧ . مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٢٧٦/٢ ، مؤسسة الأندلس

(٦) للاستزادة من هذا ارجع إلى مفتاح دار السعادة لابن القيم فقد فصل في ذلك وإلى الإيمان لعبد المجيد الزنداني وآخرون

(٧) سورة غافر آية ٥٧

قال العلامة ابن سعدي–رحمه الله : "يخبر الله تعالى بما تقرر في العقول أن خلق السموات والأرض على عظمها وسعتها أعظم وأكبر من خلق الناس فإن الناس بالنسبة إلى خلق السموات والأرض من أصغر ما يكون"[١]

٨- الاعتكاف :

الاعتكاف لغة لزوم الشئ وحبس النفس عليه بِراً كان أو غيره[٢]

وفي الشرع : لزوم المسجد لطاعة الله تعالى[٣] . يعني على صفة مخصوصة من مسلم طاهر مما يوجب غسلا"[٤]

إن الاعتكاف مدرسة للربانية فهي جمع للقلب على الله تعالى بحيث يستولي على القلب فينصرف عما سواه ولهذا نجد العلماء ينصون على أنه يستحب للمعكتف التشاغل بفعل القُرَب من الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله تعالى ونحو ذلك[٥] وأن يجتنب ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال ففي الحديث "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[٦] ويجتنب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٥٣٩/٦

(٢) المغني ،ابن قدامة ٤٥٥/٤

(٣) المقنع ابن قدامة المطبوع مع الشرح الكبير والإنصاف ٥٦١/٧

(٤) الإنصاف ، المرداوي المطبوع مع المقفع والشرح الكبير ٥٦١/٧

(٥) الشرح الكبير لأبي الفرج ابن قدامة ٦٢٨/٧،المطبوع مع المقفع والإنصاف ، الأذكار ، النووي ص١٧٣

(٦) أخرجه الترمذي ٥٥٨/٤ ، ح٢٣١٧ ، كتاب الزهد ، باب بدون اسم

الجدال والمراء والسباب والفحش[١] كما ينصون على أنه لا يخرج من المسجد إلا لما لابد منه[٢] وأنه لا يعود مريضا ولا يشهد جنازة إلا أن يشترط ذلك [٣]

قال الوزير–رحمه الله : أجمعوا على أنه يستحب للمعكتف ذكر الله والصلاة وقراءة القرآن ونقل عن مالك وأحمد : لا يستحب إقراء القرآن والفقه" ثم علل ذلك بأن اقراءه لغيره صرف لهمه عن تدبر القرآن وفهم أسراره لنفسه إلى حفظ ظاهر نطقه لغيره وهذا كله يشير إلى أن الاعتكاف حبس النفس وجمع الهمة على نفوذ البصيرة في تدبر القرآن ومعاني التسبيح والتحميد والتهليل وذكر الله فيكون كل جمع من الفكر يناسب هذه العبادة وكل ما يسقط من الفكر ويكثر من الهِّم ينافيها[٤]

إن الاعتكاف ما هو إلا عزلة مؤقتة عن شواغل الحياة وانصراف عن ملهياتها ولم لشعث القلب وإقبال على الله تعالى بالكلية وترك للفضول من الكلام ومخالطة الناس

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله– مبرزا المقصود الأعظم من الاعتكاف : "وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى وجمعيته عليه والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته فيستولى عليه بدلها ويصير الهمّ به كله والخطرات كلها بذكره والفكرة في تحصيل مراضيه وما يقرب منه فيصير أنسه بالله

---

(١) الشرح الكبير لأبي الفرج ابن قدامة ٦٢٨/٧ المطبوع مع المقنع والإنصاف . الإنصاف ، المرداوي٦٢٨/٧ المطبوع مع المقنع والشرح الكبير

(٢) المغني ، أبو محمد ابن قدامه ٤٦٥/٤

(٣) المصدر السابق ٤٦٩/٤

(٤) حاشية الروض المربع ، ابن قاسم ٤٩٤/٣

بدلا عن أنسه بالخلق فَيعُده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حيث لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم"[١]

٩- النظر في سيرة السلف الصالح

إن النظر في سير الرجال الصالحين لهو ثروة عظيمة في التربية القويمة والربانية المستقيمة فهو ذو تأثير على القلوب وتصفية للنفوس وإلهاب للعواطف وجلاء لأدران العُجب بأعمال النفس فما إن يقرأ الإنسان في أخبار الصالحين القمم حتى تتضاءل أمامه نفسه وتصغر عنده أعماله وتتحرك همته للاقتداء بهم والسير على طريقتهم .

إن ذكر أخبار الصالحين وذكر ما حدث لهم يشد الانتباه ويجذب القلوب ذلك أن النفس تتلهف لاستكمال الخبر لما غُرز فيها من حب الاستطلاع واستظهار ما خفي عنها .

كما إن القصة تجعل الإنسان كأنه يعيش مع من يقرأ سيرتهم ويرى حركاتهم وسكناتهم فتأتي الأمور المراد غرسها في صورة حية تحرك الوجدان[٢] والقصة تبقى عالقة في الذهن يجمع العقل أطرافها ويستذكرها بسهولة فيزداد تأثيرها على النفس .

يضاف إلى هذا أن مجيئ الأمر المراد غرسه في النفس في تضاعيف خبر لأناس لهم مكانة عند الإنسان يعطي مزيدا من التمسك والحب والقبول لذلك الأمر.

ولذلك نجد في القرآن الكريم الكثير من أخبار الرسل السابقين مع أممهم وكذا قصص غيرهم .

---

(١) زاد المعاد ، ابن القيم م١ج١/١٧١

(٢) تذكرة الدعاة ، البهي الخولي ص ٤٥ ، مكتبة الفلاح – الكويت ، ط٦، ١٣٩٩هـ

قال الله تعالى : " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"(١)

ولئن كانت سير الصالحين فيها الخير العظيم والقدوة الحسنة وكلمات الذهب فلا شك أن الصدر الأول من الأمة من أصحاب الرسول ﷺ لهم القدم الراسخ في هذا المضمار فقد أثنى عليهم الله تعالى في القرآن الكريم

قال الله تعالى : "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"(٢)

وقال سبحانه وتعالى : "لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا"(٣)

وجاءت الأحاديث النبوية تثني على الصحابة –رضي الله عنهم– منها ما رواه عمران بن حصين –رضي الله عنهما– قال : قال رسول الله ﷺ : "خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا ... الحديث"(٤)

---

(١) سورة يوسف آية ١١١

(٢) سورة التوبة آية ١٠٠

(٣) سورة الفتح آية ١٨

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣/٧ ، كتاب ٦٢ فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - باب١ فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن صحب النبي أو رآه من المسلين فهو من أصحابه حديث رقم ٣٦٥٠ ، ولمزيد من الأحاديث في فضل الصحابة ارجع إلى نفس المجلد.

وقال ﷺ "لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مـدّ أحـدهم ولا نصيفه"[١]

قال على بن أبي طالب ﷺ يصف أصحاب الرسول ﷺ : "والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين أعينهم كأمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتـاب الله يتراوحـون بـين جبـاههم وأقدامهم فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا[٢] كما يميد الشجر في يـوم الـريح وهملـت أعينهم حتى تنبل ثيابهم"[٣]

وقال عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما : الإيمان في قلـوب الصـحابة أعظـم مـن الجبال[٤]

إن الناظر في حال الصحابة –رضوان الله عليهم– يجد فيهم الحرص على الطاعـات واجتناب المعاصي والموبقات وترسم طريق رسول الله ﷺ فهم أعمق الناس علما يقينا وأقلهم تكلفا وأحسنهم عملا كانوا يعملون الأعمال العظيمة ومع ذلـك فهـم مشـفقون خائفون فهم من أحذر الناس من بطلان أعمالهم مع علوها وشموخها ، كـانوا أعظـم الناس إخلاصا ومع ذلك أخوفهم من النفاق والرياء ، هانت عليهم أنفسـهم وأمـوالهم وعشيرتهم واستطابوا المكاره لأجل الله عز وجل ، كانوا أشداء على الكفـار رحمـاء بينهم تراهم ركعا سجدا ، آثروا الآخرة على الدنيا وزخارفها ....

---

(١) صحيح البخاري ٢٠٧/٩ . ح٣٦٧٣ ، كتاب الجمعة ، باب الطبيب للجمعة

(٢)ماد : تحرك ومال [لسان العرب لابن منظور ٢٣٠/١٣]

(٣)البداية والنهاية ٦/٨

(٤) حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصبهاني ٣١١/١ دار الكتاب العربي ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ ، بيروت

إن من يقرأ في سيرهم – رضوان الله عليهم – أو في سير من تبعهم بإحسان يجد بإذن الله تعالى منهلا عذبا في الاقتداء يقوي إيمانه ويرسخ ربانيته ويجلو قلبه ويحفز همته للعلم النافع والعمل الصالح .

١٠-الأخوة الإيمانية والمجالسة :

إن الإنسان اجتماعي بطبعه فهو يأنس بغيره من البشر وهذا أمر ينبغي للمسلم أن يوجهه الوجهة الصحيحة التي تزيد من إيمانه وتقربه من ربه وتسلكه في عقد الربانيين فإن القرين يؤثر على قرينه بالقول والقدوة

وبخلاف ذلك أولئك الأشخاص الذين لم ينتقوا مجالسيهم ولم يتخيروا أصدقاءهم فوقعوا في براثن أخطائهم فما زادتهم مجالسهم إلا خبالا ولا استفادوا من مجالسيهم إلا وبالا

قال الله تعالى في التحذير من مجالسة الذين يخوضون في آيات الله :

"وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"(١)

---

(١)سورة الأنعام آية ٦٨

فنهى الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ عن مجالسة الذين يخوضون في آيات الله أي يكذبون بها ويستهزؤن بها فإن نسي فلا يقعد بعد الذكرى معهم [١]

وقال سبحانه : " وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا"[٢]

أي قد نزل الله عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم أي في ارتكاب معصية الله" [٣] بسبب مخالطتهم وسكوتكم عن إنكار ماهم عليه

ولهذا أخذ عمر بن عبد العزيز –رحمه الله– قوما على شراب فضربهم وفيهم صائم فقالوا : هذا صائم . فتلا "فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم"[٤]

ولخطورة الصاحب أمر الرسول ﷺ بألّا نصاحب إلا مؤمنا فعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : "لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى"[٥]

---

(١) تفسير الطبري ، محمد بن جرير الطبري ٣١٣/٩ تحقيق : د.عبد الله التركي ، دار علم الكتب ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، الرياض

(٢) سورة النساء آية ١٤٠

(٣) تفسير الطبري ٦٠٢/٧

(٤) المصدر السابق ٦٠٣/٧-٦٠٤

(٥) أخرجه أبوداود ٤٠٧/٤ ، ح٤٨٣٤ ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس . قال الألباني : حسن

وقد شبه المصطفى ﷺ الجليس بمثل عجيب فقال : "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو أن تجد منه ريحا خبيثة"[١]

وبيَّن صلوات الله وسلامه عليه عمق أثر المخالل على خليله فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم إلى من يخالل"[٢]

قال ابن عبد البر–رحمه الله : وهذا معناه –والله أعلم– أن المرء يعتاد ما يراه من أفعال من صحبه والدين عادة فلهذا أمر ألا يصحب إلا من يرى منه ما يحل ويجمل فإن الخير عادة[٣]

ولهذا كان السلف الصالح حريصين على صُحبة أهل الخير والجلوس معهم وزيارتهم والحث على ذلك ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال : قال أبو بكر لعمر–رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ "انطلق بنا إلى أمِّ أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما انتهيا إليها بكت . فقالا لها ما يبكيك أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ فقالت : إني لا أبكي إني لا أعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها"[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٧٦/١٤، ح٥٥٣٤ ،كتاب الجمعة ، باب ٣٨٣٦

(٢) رواه أبو داود في سننه ٤٠٧/٤ ، ح٤٨٣٥ ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر ٥٧١/٢ ، تحقيق : محمد الخولي ، دار الكتب العملية ، بيروت

(٤) رواه مسلم في صحيحه ١٤٤/٧ ، ح٦٤٧٢ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أم أيمن

إن جلساء الخير إن نسيت ذكروك وإن ذكرت أعانوك والأمثلة في حياة السلف كثيرة منها أن عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأصحابه : "هلموا نزداد إيمانا"[١]

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ : "اجلسوا بنا نزداد إيمانا"[٢]

وعن معاذ بن جبل ﷺ أنه كان يقول : "اجلسوا بنا نؤمن ساعة"[٣]

وكان عبد الله بن رواحه ﷺ يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول : "تعالوا نؤمن ساعة ، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمانا بطاعته ، لعله يذكرنا بمغفرته"[٤]

وعن علقمة بن قيس النخعي – رحمه لله – أنه كان يقول لأصحابه : "امشوا بنا نزدد إيمانا"[٥]

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : "اعتبروا الناس بأخدانهم فإن المرء لا يخادن إلا من يعجبه"[٦]

وقال الفضيل بن عياض –رحمه الله : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"[٧]

---

(١) المصنف ، أبو بكر ابن أبي شيبة ٢٦/١١ ، تحقيق : عبد الخالق الأفغاني ، الدار السلفية ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ، الهند

(٢) زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه ، عبد الرازق البدر ص١١١

(٣) الإيمان لأبن تيمية ص ٢١٢ ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ

(٤) الإيمان لابن تيمية ص٢١٢

(٥) زيادة الإيمان ونقصانه ، عبد الرزاق البدر ص١١٩

(٦) الإبانة ، عبيد الله بن محمد بن بطة ٤٣٩/٢

(٧) المصدر السابق ٤٥٦/٢

قال سفيان –رحمه الله : ليس شيئ أبلغ في فساد رجل وصلاحه من صاحب[١]

وقال قتادة –رحمه الله : إنا والله ما رأينا الرجل يصاحب من الناس إلا مثلـــه وشـــكله فصاحبوا الصالحين من عباد الله لعلكم أن تكونوا معهم أو مثلهم[٢]

وما أحسن قول الشاعر :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح[٣]

ومن نماذج الصحبة الحسنة صحبة الصحابة–رضي الله عنهم– للنبي ﷺ وأثره فيهم

وقال الشاعر عدي بن زيد :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي
وصاحب أولى التقوى تنل من تقاهم ولا تصحـــــــــب الأردى
فـــــــــــــــــــــــتردى مع الردئ[٤]

وهناك من الناس من لا يعينك على الخير ولا يحثك عليه بل منهم من يوردك طرق الشر ويحثك عليها فإن لم يستطع ثبطك عن الخير نسأل الله تعالى أن يجنبنا إياهم

ومن نماذج الصحبة السيئة ما جاء في الصحيحين عن المسيب عن أبيه قـــال : "لمـــا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال له: "يا عمّ ، قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقالا له : أترغب عن ملـــة

---

(١) المصدر السابق ٤٧٨/٢

(٢) المصدر السابق ٤٨٠/٢

(٣) الشعر والشعراء لعبد الله بن مسلم بن قتيبة ٢٧٥/١ ، تحقيق وشرح أحمد شاكر ، دار المعارف ، ١٣٨٦هـ ، مصر

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس ، ابن عبد البر ٧٠٥/٢

عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا . فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول : لا إله إلا الله .....الحديث[١]

فانظر كيف كان هؤلاء الجلساء سببا من أسباب الخاتمة السيئة نسأل الله تعالى العافية والسلامة من ذلك .

ولقوة أثر المخالطة والمجالسة بين الرجل وزوجته نجد الإسلام يحث على اختيار المرأة الصالحة التي تعين الإنسان على دينه فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك"[٢]

كما أن ولي المرأة عليه أن يجتهد في اختيار الزوج الصالح لابنته لقوة تأثيره عليها بل إن تأثيره عليها أغلب من تأثيرها عليه لضعفها،ولعلي هنا أذكره بما قام به عمر بن الخطاب ﷺ عندما تأيمت ابنته حفصة فذهب يعرضها على عثمان ﷺ فقال : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا . ثم عرض على أبي بكر ﷺ[٣]

وهذا سعيد بن المسيب يخطب ابنته الخليفة الأموي عبد الملك لابنه الوليد فيأبى أن يزوجه خوفا على دينها من زخرف الدنيا ثم يزوجها أحد تلاميذه الفقراء[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٨١/٩ ، ح٣٨٨٤ ، كتاب الجمعة ، باب ٣٨٣٦

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٥٨/٥ ح٤٨٠٢ .كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٨٦/٥ ، ح٤٨٣٠ كتاب النكاح باب عرض الإنسان أبنته أو اخته على أهل الخير .

(٤) سير أعلام النبلاء ، محمد بن أحمد الذهبي ٢٣٣/٤ -٢٣٥ مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٠١هـ ، بيروت ، أشرف على التحقيق وأخرج أحاديثه : شعيب الأرنؤوط

ولا شك في أن من أعظم الناس فائدة إذا جالسهم الإنسان وحرص عليهم العلماء العاملين فهم نور الدجى ومصابيح الدنيا والقدوة الصالحة وهم ورثة الأنبياء الذين لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الأخوة الإيمانية والمجالسة لا تعني شخصا واحدا فحسب بل تشمل مجالسة المجموعة الطيبة والجماعة الصالحة الذين يكونون سببا في إبعاد المرء عن الوقوع في الزلل "إذ أن الواحد البعيد عن الجماعة الصالحة مهيئ لأن يفترسه الشيطان"[١] كما يأكل الذئب من الغنم القاصية

كما أن الأخوة في الله والحب فيه قربة إلى الله تعالى يجد المرء بها مع صفات أخرى حلاوة الإيمان ففي الحديث:"لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"[٢]

والحب لله والبغض لله من أسباب استكمال الإيمان ففي الحديث "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"[٣]

١١- الاستعانة بالله :

من الأسباب العظيمة لغرس الربانية سؤال الله تعالى إياها والانطراح بين يديه واللهج بطلبها والتوجه إليه ليعينه عليها ويوفقه للقيام بحقها وقد علَّم الرسول ﷺ معاذ بن جبل

---

(١) البيان في مداخل الشيطان ،عبد الحميد البلالي ص١٧٢ ، مؤسسة الرسالة ط٣ ، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ، بيروت

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٦/١ ح٢١ ، كتاب الإيمان ، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان

(٣) المستدرك ، الحاكم ١٧٨/٢ ، كتاب النكاح ، ح٢٦٩٤. قال الذهبي : على شرط البخاري ومسلم

ﷺ فقال : "يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"[١] ومن الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"[٢]

وما أحسن قول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده[٣]

ومع سؤال الله عز وجل للربانية فعلى العبد أن يجاهد نفسه في سبيل الوصول إليها وإخلاص قلبه من أوشاب الهوى ونزعات الشيطان فقد قال الله عز وجل " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[٤]

ثمرات الربانية

إن توثيق الصلة بالله سبحانه وتعالى ربح عظيم وتجارة لن تبور لأنه كلما قويت عبودية المرء لله كلما ازدادت كفاية الله له وولايته قال الله تعالى "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٥٣/٣ ح١٣٠٣ ، كتاب صفة الصلاة ، باب نوع آخر من الدعاء

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ١٤٧/٦ ، ح١٠٤٠٥ كتاب عمل اليوم والليلة باب ما يقول إذا أمسى

(٣) مدارج العبودية من هدي خير البرية ، أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي ص٣٩ ، دار الصميعي ، ط٢ ،١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

(٤) سورة العنكبوت آية ٦٩

عَبْدَهُ"[1] "فالكفاية التامة مع العبودية التامة والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[2]

وبعض الناس يتصور أنه عندما يربح الآخرة فهو يخسر الدنيا وما علم المسكين أن القرب من الله –عز وجل– يجلب له صلاح الدارين وربح الحياتين قال الله تعالى : "من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة"[3]

فالعبادات التي فرضها الله –عز وجل– سبب لتزكية النفس وسمو الروح وما أعظم ما يجد فيها العبد من الطمأنينة والراحة

والمحرمات التي منع من مقارفتها إنما صان بتحريمها عقله وخلقه ونفسه وماله وعرضه ونسله [4]

ورسول الله ﷺ إنما"يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"[5]

ثمرات الربانية

وهذه بعض المكاسب والفوائد التي يحصلها الرباني من خير الدنيا والآخرة وهي ثمار في غاية الأهمية :

---

(١) سورة الزمر آية ٣٦

(٢) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٦ ، تحقيق : محمد الطالبي ، دار طيبة ، ط١ ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م ، الرياض

(٣) سورة النساء ، آية ١٣٤

(٤) الإيمان والحياة ، د . يوسف القرضاوي ص٤ ، مكتبة وهبة ، ط٥ ،١٣٩٧هآ ،١٩٧٧م ، القاهرة

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٧

١- محبة الله عز وجل للرباني

إن محبة الله سبحانه وتعالى للعبد إنعام عظيم وعطاء جزيل لا يصل إليه إلا الموفقون وقد بين الله تعالى أنه يحب المحسنين والمتطهرين والمتقين والصابرين والمتوكلين والمقسطين كما أخبر بذلك –عز وجل – في كتابه الكريم .

قال الله تعالى : " وَأَحْسِنُوا إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"(١)

وقال سبحانه : " إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهّرِينَ"(٢)

وقال عز وجل : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ"(٣)

وقال سبحانه : " وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ"(٤)

وقال سبحانه : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين"(٥)

وقال سبحانه : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"(٦)

والربانيون لهم من هذه الصفات أوفاها وأوفرها فاستحقوا محبة الله عز وجل .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٥

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢

(٣) سورة التوبة آية ٤

(٤) سورة آية آل عمران آية ١٤٦

(٥) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٦) سورة المائدة آية ٤٢

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشئ أحب إلىِّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلىَّ بالنوافل حتي أحبهّ..."(١)

٢- أن يجعل الله له فرقانا يهديه إلى الحق :

من ثمرات الربانية أن الله سبحانه وتعالى يهدي عباده الربانيين إلى الحق فمن أحسن نيته والتجأ إلى ربه سبحانه وتعالى وتوكل عليه واتقاه ونهج طريق العلم الصحيح والعمل الصالح فإن الله عز وجل يوفقه ويسدده ويهديه إلى الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم"(٢) أي أن مما يحصل للمتقي الفرقان وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال ، والحق والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة(٣)

ويقول سبحانه : "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا"(٤)

قال قتاده : أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت(٥)

ويقول الله عز وجل : "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ"(١)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٣٩/١٦ ، ح٦٥٠٢ ، كتاب الجمعة باب ٣٨٣٦

(٢) سورة الأنفال آية ٢٩

(٣) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ١٦٠/٣ ، مختصر تفسير ابن كثير ،الصابوني٩٩/١

(٤) سورة الطلاق آية ٢

(٥) مختصر تفسير أبن كثير ، الصابوني ٥١٤/٣

قال العلامة ابن سعدي–رحمه الله : "فإن الله أخبر أن كل من آمن أي الإيمان المأمور به وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله وفي علمه وعمله"(٢)

وقال سبحانه "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ"(٣)

وقال سبحانه "وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا"(٤)

وقال تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ"(٥)

وقال عز وجل "الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"(٦)

وقال تعالى : " قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ"(٧)

---

(١) سورة التغابن آية ١١

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي ٤٠٠/٧

(٣) سورة محمد آية ١٧

(٤) سورة النساء الآيات من ٦٦ إلى ٦٨

(٥) سورة الحديد آية ٢٨

(٦) سورة البقرة آية ٢٥٧

(٧) سورة المائدة آية ١٥ ـ ١٦

ولأهمية النور والهداية نجد أن الرسول ﷺ يدعو طالبا ذلك فيقول : "اللهم اجعل في قلبي نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا وعن يميني نورا وعن يساري نورا وفوقي نورا وتحتي نورا وأمامي نورا وخلفي نورا واجعل لي نورا"(١)

وكما كان –صلى الله عليه وسلم– يدعو بهذا الدعاء في قيام الليل : "اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"(٢)

وقد بين الله تعالى أنه يهدي أهل الإيمان إلى الحق المختلف فيه بإذنه .

قال الله تعالى : "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(٣)

فبين الله عز وجل هنا أنه هدى المؤمنين الذين أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة"(٤)

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ١١٦/١١ ، كتاب ٨٠ الدعوات باب ١٠ الدعاء إذا انتبه من الليل ، حديث رقم ٦٣١٦

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٥/٢،ح١٨٤٧ ،كتاب صلاة المسافرين ،باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه

(٣) سورة البقرة آية ٢١٣

(٤) تفسير ابن جرير الطبري ١٩٧/٢

وكلما قوي إيمان الإنسان وارتقى درجات التقى كلما كانت بصيرته أقوى وأتم فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "إن الله قال : من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بأحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ..... الحديث"(١)

فأخبر سبحانه وتعالى "أن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة ..... ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به وإن بطش بطش به وإن مشى مشى به فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه ، فالباء ههنا للمصاحبة وهي مصاحبة لا نظير لها ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم به ، فالمسألة حالية لا علمية محضة"(٢)

والمصاحبة هنا كقوله في الحديث الآخر : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه"(٣)

وهذه هي المعية الخاصة(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٣٩/١٦ ، ح٦٥٠٢ ، كتاب الجمعة ، باب ٣٨٣٦

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص٢١٩ ـ ٢٢٠

(٣) أخرجه الإمام أحمد في سنده ٥٤٠/٢ ، ح١٠٩٨٨ ، مسند أبي هريرة

(٤) الجواب الكافي ، ابن القيم ص ٢٢١

"إن من اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل قربه الله إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتي يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة ..... فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ولا إرادته إلا لما يريده منه مولاه فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ولا يتحرك إلا بأمره فإن نطق نطق بالله وإن سمع سمع به وإن نظر نظر به وإن بطش بطش به فهذا هو معنى قوله عز وجل- كنت سمعه الذي يسمع به ..."[1]

ونلاحظ أنه اقتصر على ذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر وكذلك حركة اليد والرجل التي لابد للعبد منها فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار[2]

فالعبد الرباني موفق من الله تعالى في علمه وعمله

وقد ضرب الله المثل لنوره في قلب المؤمن فقال عز من قائل : " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[3] فِيهَا مِصْبَاحٌ[4] الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا

---

(١) عن أثر الإيمان في تحصين الأمة، د . الجربوع ونسبه إلى جامع العلوم والحكم لابن رجب

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص٢٢١

(٣) المشكاة : الكوة في الحائط غير النافذة [التفسير الميسر ، نخبة من العلماء ص٣٥٤ بإشراف وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ، ط٣ ١٤٣٢هـ

(٤) مصباح : السراج الذي يكون في الزجاجة [فتح القدير ، محمد الشوكاني ٣٦/٤

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ[١] يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ[٢] يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ[٣] وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[٤]

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله : "ضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة وهي الكوة في الحائط فهي مثل الصدر وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه وهي مثل القلب وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هي في قلب المؤمن وهي الصفاء والرقة والصلابة فيرى الحق والهدى بصفائه وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد في الحق ويصلب فيه بصلابته"[٥]

وفي الحديث "البر ما أطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك"[٦]

وإذا كان قلب الرباني أبيض صقيلا كان اطمئنان قلبه ونفسه صحيحا فالمعاصي والذنوب هي عدو البصيرة والنظر الصحيح

---

(١) الزجاجة كأنها كوكب دري : مضيئ إضاءة الدر [تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن السعدي ٤٢٠/٥ ، حققه محمد النجار ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ٤٠٤هـ

(٢) لا شرقية ولا غربية : أي ليست في جهة المشرق ولا في جهة المغرب وإنما هي في أرض منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج وزيتها أصفى [التفسير الميسر ، نخبة من العلماء ص٣٥٤]

(٣) يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار : مبالغة في حسنه وصفائه وجودته [الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي م٦،ج١٢ /٢٩٥ دار الكاتب العربي ، ١٣٨٧هـ -١٩٦٧م القاهرة

(٤) سورة النور آية ٣٥

(٥) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٥٠-١٥١ ، دار طيبة ، ط١ ، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤ م ، الرياض

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥٢٨/٢٩ ح١٨٠٠١

قال الله تعالى : " كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[١]

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو (الرَّان) الذي ذكر الله في كتابه " كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[٢] قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.[٣]

وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب[٤]

قال الإمام مجاهد–رحمه الله : "هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تُغَشِّي الذنوبُ قلبه"[٥]

وهكذا تكون المعاصي سببا في ران القلب وصدئه فلا يعرف الحق من الباطل إلا ما أشرب من هواه نسأل الله السلامة

قال حذيفة–رضي الله عنه : "إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاه الربدا[٦]"[٧]

---

(١) سورة المطففين آية ١٤

(٢) سورة المصطفين آية ١٤

(٣) أخرجه الترمذي ٤٣٤/٥ ، ح٣٣٣٤ ، كتاب تفسير القرآن ،باب سورة ويل للمطففين

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي م١٠ ج٢٥٩/١٩

(٥) المصدر السابق م١ ج٢٥٩/١٩

(٦) شاه ربداء : منقطه بحمرة وبياض أو سواد [لسان العرب لابن منظور ١٧٠/٣]

(٧) الجواب الكافي ، لابن القيم ص٥٨

قال الإمام ابن تيمية–رحمه الله : "كما أن الإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا وإن لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر"[١]

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله "فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه وصداه بحسب غفلته وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيري الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل"[٢]

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن هذا الفرقان بين الحق والباطل وهذا النور الموجود في القلب إنما يلجأ المؤمن إليه في حالة المتشابهات[٣] واختلاف الفتيا أو في الأمور الحادثة التي لم يتبين حكمها .

أما إذا ظهر الحكم من الدليل الشرعي فيجب الأخذ به وإن لم ينشرح به الصدر كما كره بعض الصحابة التحلل من الحج إلى العمرة وبعض ما ورد في مفاوضته ﷺ في صلح الحديبية[٤]

٣- تثبيته على الحق في الدنيا والآخرة وحصول البشرى له في الدنيا:

من نعم الله تعالى على أوليائه الربانيين تثبيتهم على الحق في الحياة الدنيا وفي الآخرة

---

(١) الإيمان ، ابن تيمية ص ٢٩، المكتب الإسلامي ، ط٢ ،١٣٩٢هـ

(٢) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١١٩

(٣) القلب ، أحمد عز الدين اليانوني ص١٤٧ ، مكتبة الهدى ،ط١ ،١٣٩٣هـ -١٩٧٣م ،حلب

(٤) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ، د. عبد الله الجربوع ٥٣٦/٢ وانظر ولاية الله للشوكاني ص٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٤٣٠

قال الله تعالى : " يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ"[1]

فيبين سبحانه وتعالى أنه يثبت عباده المؤمنين الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام الذي يستلزم أعمال الجوارح ، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية واليقين وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها[2]

وتثبيت القلب على دين الله لاشك في أنه من أعظم نعم الله تعالى التي تهم المسلم لا سيما وأن المؤمن يتعرض في هذه الحياة إلى شبهات يثيرها أعداء الملة والدين من كفار صرحاء أو منافقين دخلاء هم من بني جلدتنا ويتحدثون بلساننا فالله يتولى عبده سبحانه فيثبت قلبه ويربط عليه ويكشف له الشبهات والتلبيسات التي يثيرها هؤلاء الأعداء .

كما أن المؤمن معرض للشهوات بشتى أصنافها فمنها ما يتعلق بالفرج ومنها ما يتعلق بالبصر والسمع ومنها ما يتعلق بالمال .... ولا مثبت للمؤمنين أمام هذه الحوالك إلا رب العباد رحمن الدنيا والآخرة

وقد يصل الأمر إلى أن يتناول أعداء الإسلام العبد فيحاولون فتنته بشتى أنواع التعذيب فلا ملجأ له إلا وليه سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة ابراهيم آية ٢٧

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ، ١٤٠/٤

إن الرباني يذكر الله تعالى في الرخاء ومن ذكر الله في الرخاء ذكره الله في شدته وهو يحفظ الله تعالى في أوامره ونواهيه فالله يحفظه ويتولاه

ومما يدل على ذلك وصية النبي ﷺ لعبدالله بن عباس –رضي الله عنهما–في قوله"احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة"(١)

ومما يدل على عظم أمر التثبيت على دين الله أننا نرى رسول الله ﷺ يكثر من دعاء "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"(٢)

ومما لا جدال فيه أن التثبيت على الحق تشتد الحاجة إليه ويعظم الفقر إليه عند الموت ، وما أدراك ما الموت ، حالة ضعف للإنسان وهي آخر فرصة للشياطين لإغواء الإنسان وإخراجه من دينه ولولا تثبيت الله تعالى لنا ورحمته لهلكنا لكن الله برحمته يتولى عباده المؤمنين في هذه الحالة الحرجة ويثبتهم على دينهم . فالآية السابقة الذكر تشمل تثبيت المؤمنين عند الموت أيضا وتيسير الخاتمة الحسنة وكذا في القبر عند سؤال الملكين(٣)

ولا تقتصر رحمة الله تعالى لعباده الربانيين على هذا الحد بل تتجاوزه إلى إنزال الفرح إلى قلوبهم وذلك عن طريق تبشيرهم بما يسرهم في الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٦٦٧/٤ح ٢٥١٦ قال الترمذي : حديث حسن صحيح وصححه الألباني

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٧٠٦/١ ، ح١٩٢٦ . وأخرجه الترمذي ٤٤٨/٤ ، ح٢١٤٠ وصححه الألباني

(٣) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ١٤٠/٤

قال الله تعالى : "أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"(١)

قال الإمام الطبري – رحمه الله تعالى – بعد أن ساق الأقوال في تفسير البشرى : "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال : إن الله – تعالى ذكره – أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا . ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله ... ومنها بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل كما قال جل ثناؤه "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"(٢) وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى"(٣)

وقال تعالى : " وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ"(٤)

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله : " لهم البشرى التي لا يقادر قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم بها . وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله التي يرون في خلالها أنه مريد لإكرامهم في الدنيا

---

(١) سورة يونس الآيات ٦٢-٦٤

(٢) سورة البقرة آية ٢٥

(٣) تفسير الطبري ، الطبري ١٥/١٤٠-١٤١

(٤) سورة الزمر آية ١٧

والآخرة ولهم البشرى في الآخرة عند الموت وفي القبر وفي القيامة . وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة "[١]

وقال – سبحانه وتعالى – في بيان بشارة الملائكة للمؤمنين : "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ"[٢] والمعنى أن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت قائلين "أَلَّا تَخَافُوا" أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة "ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه"وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ" فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير" نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ" أي تقول الملائكة هذا الكلام للمؤمنين عند الاحتضار[٣]

وفي حديث البراء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : "إن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء"[٤]

وفي الحديث الآخر "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . قلنا يا رسول الله : كلنا نكره الموت قال ﷺ : ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شئ أحب إليه من أن يكون

---

(١) تفسير ابن سعدي ٤٥٩/٦

(٢) سورة فصلت ٣٠-٣٢

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٢٦٣/٣

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٨٧/٤ ،ح١٨٥٥٧ ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح ، رجاله رجال الصحيح

قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه . قال : وإن الفاجر أو الكافر إذا حُضِر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه"[١]

٤- تحقيق السعادة :

تبرز أهمية هذه الفائدة في أن كل إنسان على وجه الأرض مهما كانت مكانته أو مذهبه ، مؤمنا كان أو كافرا ، تقيا أو فاجرا ، صغيرا أو كبيرا ، حاكما أو محكوما ، غنيا أو فقيرا ، كل هؤلاء يسعون لتحقيق السعادة ؛ ولهذا كان إبراز هذه الفائدة من الأهمية بمكان ليثبت السائرون على طريق الحق ولينجذب المبتعدون عنه .

ومع اتفاق الجميع على الرغبة الصادقة في تحقيق السعادة إلا أننا نجد التباين العريض بينهم في سبيل الوصول إليها فبعض الناس يتصور أن السعادة في كثرة المال وتكديسه وجمع الثروة والحصول على المتع المادية ورفاهية العيش وليس الأمر كذلك لأننا إذا نظرنا إلى بعض الدول الغنية مثل السويد نجدها أغنى دولة من حيث دخل الفرد المادي فهم يعيشون في مستوى اقتصادي يشبه الأحلام ولا يكاد يكون في حياتهم خوف من فقر أو شيخوخة أو بطالة أو كارثة ؛ لأن الدولة تضمن لكل من يصيبه شيء من ذلك إعانات دورية ضخمة بحيث لا يجد مواطن مجالا للشكوى من العوز أو الحاجة الاقتصادية بحال من الأحوال إلى غير ذلك من الأمور المالية التي ترفع مستوى الأفراد المالية[٢] فهل هم سعداء؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٨٦/٥ ،ح٦١٤٢

(٢) لمزيد من التفصيل حول الرفاهية عندهم انظر الإيمان والحياة ، د، بوسف القرضاوي ص٧٤-٧٦

نجد أن أهل السويد بالرغم من الرفاهية التي يعيشونها والضمانات التي لم تدع ثغرة إلا سدتها الدولة إلا أنهم يعيشون حياة قلقة مضطربة كلها ضيق وتوتر ، وشكوى وسخط ، وتبرم ويأس ولهذا يلجأ آلاف الناس للتخلص من هذه الحياة النكدة عن طريق الانتحار[١] فهي أعلى دولة في نسب الانتحار[٢] وسبب ذلك هو فقدان الإيمان[٣] الذي تطمئن به النفوس .

هذا بعض ما يقال في المجتمعات أما عن الأفراد فإليك هذه القصة التي تؤكد أن المال مهما بلغ لا يمكن أن يكون مكمن السعادة .

إنها قصة المرأة كرستينا ابنة المليونير المشهور "اوناسيس" فقد ورثت من أبيها ما يزيد على خمسة آلاف مليون ريال !!! فهل جلب لها هذا المال السعادة؟

إليك شيئا من حياتها لقد فقدت أمها ثم فقدت أخوها ثم والدها وكانت قد تزوجت في حياة أبيها برجل امريكي وعاش معها شهورا ثم طلقها أو طلقته

وبعد وفاة أبيها تزوجت برجل آخر يوناني وعاش معها شهورا ثم طلقها أو طلقته

ثم انتظرت طويلا تبحث عن السعادة فتزوجت شيوعيا روسيا وعندما سئلت عن سبب زواجها برجل شيوعي عللت ذلك بأنها تبحث عن السعادة وذهبت معه إلى روسيا بعد الزواج وبما أن النظام الشيوعي لا يسمح بامتلاك أكثر من غرفتين ولا يسمح بخادمة

---

(١) الإيمان والحياة ، د يوسف القرضاوي ص٧٦

(٢) السعادة بين الوهم والحقيقة ، د .ناصر العمر ص٢٣

(٣) الإيمان والحياة ، د. يوسف القرضاوي ص٧٦

فقد جلست تخدم في غرفتها وعندما سألها الصحفيون عن سبب ذلك بينت أنها تبحث عن السعادة وعاشت معه سنة ثم طلقها بل طلقته

ثم بعد ذلك أقيمت حفلة في فرنسا وسألها الصحفيون : هل أنت أغنى امرأة ؟ قالت : نعم أنا أغنى امرأة ولكنى أشقى امرأة !!!

ثم تزوجت برجل غني فرنسي وبعد فترة يسيرة أنجبت بنتا ثم طلقها بل طلقته

ونلاحظ أنها تزوجت من أربع دول وليس من دولة واحدة لعلها تجد السعادة . ثم عاشت بقية حياتها في تعاسة وهمّ وقد وجدوها ميتة في شاليه في الأرجنتين لا يعملون هل ماتت ميتة طبيعية أم أنها قتلت[١]

وهكذا لم تحقق لها أموالها الطائلة السعادة

وخلاصة الأمر أن كثرة المال ليس هو مفتاح السعادة ، وكم من إنسان صاحب ثراء عريض ومع ذلك تجده تعيسا

بل ربما كانت كثرة المال أحيانا وبالا على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة ، قال الله تعالى في شأن طائفة من المنافقين "فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ"[٢]

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله : والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها والسعي الشديد في ذلك ، وهم القلب فيها ، وتعب البدن ، فلو قابلت لذاتهم

---

(١) السعادة بين الوهم بي الحقيقة ، د. ناصر العمر ص٩-١٣

(٢) سورة التوبة آية ٥٥

فيها بمشقاتهم لم يكن لها نسبة إليها ، فهي – لمّا ألهتهم عن الله وذكره– صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا"[١]

ولا يفهم من هذا الكلام استنقاص المال والأمور المادية وازدراؤها فإنه كما بين الله

عزوجل قوام الحياة حيث قال سبحانه : "وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا"[٢]

أي قياما لعباده في مصالح دينهم ودنياهم[٣]

وقال ﷺ : "من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح"[٤]

وقال ﷺ : "نعم المال الصالح للمرء الصالح"[٥]

وهناك من يتصور أن السعادة في الشهرة وإليك قصة أحد المشهورين وهو سعيد الزياني قبل اهتدائه فقد كان يعمل في الغناء واشتهر بذلك ثم انتقل إلى التمثيل وكان أشهر الممثلين المغاربة ثم تحول قديما إلى الإذاعة والتلفزيون مع المشاركات الغنائية والتمثيلية ووجد نفسه في بيئة المشاهير وهو صغير السن حيث بدأ الغناء مع الكبار وعمره لم يتجاوز الخامسة عشر فهل أكسبته الشهرة السعادة؟ لما سأله أحد الصحفيين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن السعدي ٢٤٩/٣

(٢) سورة النساء آية ٥

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ١١/٢

(٤) رواه أحمد ٥٥/٣،ح١٤٤٥ وقال صاحب الأنوار الساطعات ١٤/١ : إسناد صحيح

(٥) أخرجه الإمام أحمد ١٩٧/٤ ، حديث رقم ١٧٧٩٨ ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم

وهو في حياة الفن هل هو سعيد فأجاب بأنه س ع ي (سعي) ولا زال ينقصه (د) وأنه يبحث عنه.

وقال إن الفرق بين حياته في الدعوة وبين حياته في الفن كالفرق بين السعادة والشـــقاء بل كالفرق بين الجنة والنار[١]

وهناك من يتصور أن السعادة في أمور أخرى ليست هي أساس السعادة[٢]

إذن فما الطريق الحقيقي للسعادة ؟

إن الطريق الحقيقي للسعادة يكمن في التعرف على الفطرة التي فطر الله الناس عليهـــا والاستقامة عليها ولا يعوض عن ذلك شئ كائنا ما كان قال الله تعالى " فَـــأَقِمْ وَجْهَـــكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ"[٣]

فلن يستقيم أمر الإنسان ولن يطيب له عيش ولا تقر له عين ولا يهدأ لـــه قلـــب إلا إذا اهتدى إلى فطرته وأسلم لله وجهه وتخلص من رق العبوديـــة لغيـــره فعندئـــذ يشـــعر بالطمأنينة والأنس والأمن والأمان والقرار ويتخلص مـــن الحيـــرة والقلـــق والشـــك والاضطراب

---

(١) مجلة شباب ص ٣١-٣٢ ، السنة الثامنة ، العدد التسعون جمادي الأولى ١٤٢٧هـ

(٢) نافش الدكتور ناصر العمر في كتابه السعادة بين الوهم والحقيقة ص٧-٢٢ وكذا الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه الإيمان والحياة ص٧٤-٨٠ بعض هذه الامور فيرجع إليها .

(٣) سورة الروم آية ٣٠

"فأعظم لذات الدنيا على الإطلاق هو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك"(١)

إن أهنأ عيش وأطيبه وألذه بلا شك هو عيش من عاش لله فأحبه واشتاق إليه وأنس به

قال الله تعالى : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(٢)

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله : "الحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت"(٣)

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله : "ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحدا في مرضاة الله ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله

---

(١) الجواب الكافي ، ابن القيم ص٢٨١ ، المطبعة السلفية ، ط٣ ، ١٤٠٠ هـ ، القاهرة .

(٢) سورة النحل آية ٩٧

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٣٤٦/٢

، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه"[١]

وقال العلامة ابن سعدي – رحمه الله : "إن من خصائص الإيمان أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزق الله وعدم تعلقه بغيره وهذه هي الحياة الطيبة ، فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح"[٢]

وقال سبحانه وتعالى " لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ"[٣]

وقال عز وجل : " وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ"[٤]

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى : "ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة وهو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن إليه"[٥]

---

(١) الجواب الكافي ، ابن القيم ص٢١٨ ـ ٢١٩

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، عبد الرحمن السعدي ص٤٢، خرج أحاديثه : محمد بن ناصر العجمي ، مكتبة دار الأقصى ،ط١ ،١٤٠٦هـ ١٩٨٥م ، الكويت

(٣) سورة النحل آية ٣٠

(٤) سورة هود آية ٣٠

(٥) الجواب الكافي ، ابن القيم ص١٤٢

إن للإيمان حلاوة فاز بها المشمرون إلى ربهم الجادون في طريقهم إلى الله تعالى ولهذا فهم يشعرون بلذة لا يذوقها غيرهم ولا يعيشها أحد سواهم وعلى رأسهم صلوات الله وسلامه عليه محمد بن عبد الله القائل "وجعلت قرة عيني في الصلاة"[١] وكان يقول "يا بلال أرحنا بالصلاة"[٢]

فقرت العين بالصلاة واطمئنان القلب بذكر الله

قال الله تعالى : " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[٣]

قال الإمام ابن عبد البر – رحمه الله : "إن في الدنيا جنة معجلة وهي معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته . والعلم النافع يدل على ذلك ، فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة"[٤]

وسمع الإمام ابن القيم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمهما الله تعالى – يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"[٥]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية لابن القيم – رحمهما الله تعالى مرة : "ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أنّى رحت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة

---

(١) رواه أحمد ٢٨٥/٣ ح١٤٠٦٩ وقال شعيب الأرنؤوط ٢٨٥/٣: إسناده حسن ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سلام أبي المنذر فهو صدوق حسن الحديث ، وأخرجه النسائي ٦١/٧ ، ح٣٩٤٠ . وقال الألباني : صحيح

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٦٤/٥ رقم ٢٣١٣٧ . قال شعيب الأرنؤوط : رجاله ثقات لكن اختلف على سالم بن أبي الجعد في إسناده

(٣) سورة الرعد آية ٢٨

(٤) جامع بيان العلم وفضله ، أبو عمر يوسف ابن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ) ١٧٥/١، وقف على طبعه وتصحيحه وتقييد حواشيه للمرة الأولى إدارة الطباعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، بيروت

(٥) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٣٩

وقتلى شهادة وإخراجي من بلدي سياحة"[١]. وكان يقول في محبسه في القلعة :"لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة"[٢]

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله : "في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسدَّ تلك الفاقة أبدا"[٣]

وقال إبراهيم ابن أدهم – رحمه الله : "لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف"[٤]

وقال آخر : "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه [٥]

وقال آخر : "إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا"[٦]

---

(١) الوابل الصيب ص ١٣٩

(٢) المصدر السابق ص١٣٩

(٣) عن الخصائص للقرضاوي ص١٤-١٥ ونسبة إلى مدارج السالكين لابن القيم

(٤)الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٤٠ ، وكذا ٢٨٢ ، الجواب الكافي ، ابن القيم ص١٤١

(٥)جامع بيان العلم وفضله ، ابن عبد البر ١٨١/١ . رساله لكل مسلم ، ابن القيم ص٣١ ، راجعها وعلق عليها د . أسامة محمد عبد العظيم ، مطبعة المدني ، ط١ ،١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، القاهرة. الفواكه الشهية في الخطب المنبرية والخطب المنبرية على المناسبات ، السعدي ص٢٦ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤١٢هـ -١٩٩١م ، الرياض

(٦) الوابل الصيب ، ابن القيم ص٣١

وقال آخر : "إنه لتمر بي أوقات أقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"[١]

إن هذه النقول عن علماء السلف الصالح تؤكد أن اهتداء الإنسان إلى فطرته التي فطره تعالى عليها مكسب عظيم وتجارة رابحة وسعادة في الدنيا قبل الآخرة فالفطرة لا تحس بالراحة والطمأنينة والاستقرار حتى تجد ربها ويكون وحده هو المستولى على همومها وإرادتها .

وما أحسن قول الشاعر :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد[٢]

يقول أطباء النفس في بيان هذا المعنى :

إن الإيمان القوي والاستمساك بالدين والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبي ، وإن الوعاظ الدينين لا يحضوننا على الاستمساك بالدين توقيا من عذاب الجحيم في الدار الآخرة فحسب ، وإنما يوصوننا بالدين توقيا من الجحيم المنصوب في هذه الحياة الدنيا ، جحيم قرحات المعدة والانهيار العصبي والجنون"[٣]

ولا يتصور أحد أن الرباني يعيش بعيدا عن المنغصات والمصائب دائما في هذه الحياة لكنه يواجهها بما يسهلها عنده . وهو ما سنتناوله – إن شاء الله تعالى – في النقطة التالية

---

(١) الجواب الكافي ، ابن القيم ص١٤١

(٢) السعادة بين الوهم والحقيقة ، د. ناصر العمر ص٧ ، دار الوطن ،ط١ ، ١٤١٠هـ ، الرياض

(٣) سفينة الإيمان ، محمد الصالح الصِّدّيق ص٨٧ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر

أما إذا ما ابتعد الإنسان عن ربه سبحانه وتعالى فهو قلق متبرم حائر وله المعيشة النكدة والحياة الضنك بمقدار بعده عن ربه سبحانه وتعالى وإن تنعم بأصناف النعيم المادي وما أكثر ما يقال عن ذلك ويكتب

وقال الدكتور يوسف القرضاوي : "وفي مجال الأدب والصحافة نكاد نقرأ كل يوم جديدا من السخط والقلق والتوتر الذي يسود الحياة في الغرب نتيجة للانحراف عن الإيمان بالله والآخرة والاستغراق في المطالب المادية وحدها"[١]

قال "وليام روك" أحد الأدباء الأمريكيين وهو يدافع عن تعاطيه المخدرات "إن الحياة طعمها مر وإن الناس في تعب دائم وإنه لا وسيلة للهرب من القرف إلا الاستسلام للأحلام السعيدة وكسل لذيذ"[٢]

وما أجمل كلمة الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى : "وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره"[٣]

٥- تفريج الشدائد :

من الأمور المشاهدة في الحياة أن الإنسان تمر به في حياته بعض المحن وتكتنفه بعض الأزمات ، والربانيون يتولاهم الله سبحانه وتعالى في شدائدهم ويجعل لهم فيه فرجا ومخرجا

قال الله تعالى : "وَمَن يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَل لَّه مَخْرَجًا"[١]

---

(١) الإيمان والحياة للقرضاوي ص٣٢٦

(٢) المصدر السابق ص٣٢٦

(٣) الجواب الكافي ، ابن القيم ص٢١١

فكل من أتقى الله عز وجل ولازم مرضاته في جميع أحواله فإن الله تعالى يجعل له فرجا ومخرجا من كل شدة ومشقة[٢] وينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة"[٣]

وقال الله تعالى "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا "[٤] أي "يسهل له أمره وييسره عليه ويجعل له فرجا قريبا ومخرجا عاجلاً"[٥]

ومن نماذج تفريج الكربات ما وقع فيه رسول الهدى – صلوات الله وسلامه عليه – وزوجه الكريمة عائشة – رضي الله عنها – حين رماها أهل الإفك من المنافقين بما قالوه فإن الأمر قد اشتد على رسول الله ﷺ حتى استشار علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد في فراق أهله وغير ذلك مما مر به رسول الله ﷺ في هذه المحنة

وكذا عائشة – رضي الله عنها – فإنها حين علمت بكت تلك الليلة التي علمت فيها حتى أصبحت لا يرقأ[٦] لها دمع ولا تكتحل عينها بنوم وكما تقول عائشة ﵂ " وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي"

فنزل فرج الله عز وجل ببراءتها بآيات يتلين إلى آخر الدهر[٧]

وكذا قصة جريج عندما اتهمته البغي بأنه زنى بها وأن الرضيع الذي ولدته ابن له

---

(١) سورة الطلاق آية ٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٤١٠/٧

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٥١٤/٣

(٤) سورة الطلاق آية ٤

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٥١٦/٣

(٦) لا يرقأ : لا ينقطع [فتح الباري ، ابن حجر ١٢٤/١]

(٧) انظر كامل القصة في صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٤٣١/٧ -٤٣٥ كتاب المغازي باب ٣٤ حديث الأفك حديث رقم ٤١٤١

"فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغي فولدت منك قال : أين الصبي ؟ فجاؤا به فقال : دعوني حتى أصلي فصلى فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعي"[١] وهكذا فرج الله تعالى لعبده وأظهر براءته بحمده ومنته بكرامة خارقة للعادة

وهذا أبو مسلم الخولاني – رحمه الله – من التابعين يلقى في النار فيجدونه قائما يصلي[٢]

وفي غزوة ذات السلاسل كان الماء في أيدي الفرس وشكى المسلمون ذلك إلى قائدهم فأتى فرج الله وكرامته فقد أرسل الله سحابة أمطرت المسلمين وكونت عندهم غدرانا

فقواهم ذلك على عدوهم واستبشروا به"[٣]

وصدق الله إذ يقول " إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ"[٤]

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله : "يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم كما قال تعالى " أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ"[٥] "[٦]

---

(١) صحيح مسلم ٤/٨ ، ح٦٦٧٣ ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع

(٢) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ص٢٥٣

(٣) البداية والنهاية ،ابن كثير ٣٤٤/٦ ولمزيد من خوارق العادات ارجع إلى قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص٢٤٣ وما بعدها

(٤) سورة الحج آية ٣٨

(٥) سورة الزمر آية ٣٦

(٦) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٥٤٦/٢

فالكفاية التامة مع العبودية التامة والناقصة مع الناقصة فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[١]

٦- إجابة الدعاء :

إن المسلم في هذه الحياة تمر به أوقات يحتاج فيها إلى أمور معينة فيسأل الله تعالى من فضله أو قد تجتاحه أشياء يستعيذ الله منها . وإن من فضل الله على عباده الربانيين في الحياة الدنيا أنهم إذا سألوه أعطاهم وإذا استعاذوه أعاذهم فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "إن الله قال : من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىّ عبدي بأحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته .... وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه"[٢]

قال الشوكاني – رحمه الله : إن من بلغ إلى رتبة المحبة وكان الله سمعه وبصره فإنه يجاب له دعاؤه ويحصل بغيته على حسب إرادته ، وأي مانع يمنع من هذا ؟! بل كل ما يظن أنه مانع ليس بمانع شرعي ولا عقلي ووجود بعض أهل العبادة والصلاح من كونه دعا وبالغ ولم يجب ليس ذلك إلا لمانع يرجع إلى نفسه ولا يكون المانع الراجع إلى نفسه مانعا في حق من هو أعلى منه رتبة وأجلّ منه مقاما ولا ملازمة بين مقام العبادة والصلاح وبين مقام المحبة[٣]

---

(١) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٦

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٨٤/٥ ، ح ٦١٣٧ ، كتاب الرقاق باب التواضع

(٣) انظر: قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ص ٤٦٤

وسر ذلك أنه لما حصلت الموافقة من العبد لربه في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه [١]

ولهذا قد تظهر عليه بعض الكرامات التي لا تنافي الشريعة "لأن من كان مجاب الدعوة لا يمتنع عليه أن يسأل الله سبحانه أن يوصله إلى أبعد الأمكنة التي لا تقطع طريقها إلا في شهور في لحظة يسيرة وهو القادر القوي الذي ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن . وأي بعد في أن يجيب الله دعوة من دعاه من أوليائه في مثل هذا المطلب وأشباهه"[٢]

لكن لو ظهر شئ من خوارق العادات على من لم يكن مقتديا في أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة فهو ليس من أولياء الله فأمثال هذه الخوارق من أفعال الشياطين[٣]

ومن نماذج إجابة الدعوات وإبرار الله تعالى لقسمه ما كان من حال سعد بن أبي وقاص ﷺ كان مجاب الدعوة ما دعا الله قط إلا استجيب له ومن ذلك أنه لما حال نهر دجلة بين المسلمين ومواصلة الفتوح وبعد تردد عزم سعد ﷺ على العبور ودعا الله عز وجل أن يسلم جيشه وينصره في هذا اليوم وأمر الجند بالتوكل على الله والاستعانة به ورد الحول والقوة إليه واقتحم المسلمون النهر آمنين وقد أيدهم الله برحمته فكان الفرس إذا تعب في الماء يسر الله مثل المرتفع يستريح عليه بل إن بعض الخيل ليمشي في الماء ولا يصل الماء إلى حزامها[٤]

---

(١) الجواب الكافي ، ابن القيم ص٢٢٢

(٢) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ص٢٤٣ ، دراسة وتحقيق : ابراهيم هلال ، تقديم عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة

(٣) المصدر السابق ص٢٣٧ -٢٣٨

(٤)البداية والنهاية ، ابن كثير ٦٤/٧-٦٥ ، كتاب دلائل النبوة ، أبو نعيم الأصبهاني ص٢٠٨ ، عالم الكتب ، بيروت ،

وفي تستر أرهق الفرسُ المسلمين وأنهكوهم فتوجه المسلمون للبراء بن مالك – رضي الله عنه – وذكروه بإخبار الرسول –صلى الله عليه وسلم – بأنه ممن لو أقسم على الله لأبره ورجوه أن يقسم على ربه بتمكين المسلين ونصرهم فأقسم البراء على الله واستجاب الله عز وجل وولى الفرس الأدبار ، ثم التقى المسلون والفرس مرة أخرة وتكرر الموقف ذاته وأرجع الفرس المسلمين ورجا المسلمون البراء مرة ثانية ففعل وأضاف مع نصر المسلمين الشهادة لنفسه وحقق الله ذلك بفضل منه ورحمة[١]

وكذلك سعيد بن زيد ﷺ دعا على المرأة لما كذبت عليه فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها في أرضها فعميت ووقعت في حفيرة صغيرة في أرضها فماتت [٢]

ودعا اللهَ العلاءُ بن الحضرمي بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء ولا يبقى بعدهم فأجيب ودعا لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور فمروا بخيولهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم[٣]

وهذا صلة بن أشيم – رحمه الله – مات فرسه في الغزو فقال اللهم لا تجعل لمخلوق عليّ منَّة ودعا الله فأحياه[٤]

٧- الثقة بكرامة الإنسان

---

(١) حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصبهاني ٣٥٠/١ ، ابن الجوزي ، صفة الصفوة ٦٢٦/١

(٢) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ص٢٥٢

(٣) المصدر السابق ص٢٥٣

(٤) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ص ٢٥٤

من ثمار ربانية الغاية أن يدرك الإنسان الغاية من وجوده والرسالة المنوطة به فيحس لحياته قيمة ومعنى وأنه ليس تافها لا قيمة له ولا مقدار كما يتصور بعض الناس .

ويتضح هذا الأمر عندما تعرج على إحدى الأفكار المنحرفة تجاه الإنسان فأحد العلماء الغربيين يرى أن الإنسان من سلالة القرد ثم تطور حسب الظروف والأحوال الجوية والوراثية حتى انتهى به المطاف إلى وضعه الحالي . إلى غير ذلك من الأفكار التي تنحط بالإنسان إلى مستوى الحيوان[١]

أين هذا من النظرة الإسلامية إلى الإنسان الذي كرمه عز وجل وفضله .

قال الله تعالى : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[٢]

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق وإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة وأنعم عليهم بالشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد[٣] وغيرها .

كما أن الله عز وجل أسجد الملائكة لأبي البشر آدم – عليه الصلاة والسلام .

---

(١) بعض أسباب الإلحاد وأثر الإيمان بالله تعالى ، د عبد الحليم أحمدي ٣١-٣٣

(٢) سورة الأسراء آية ٧٠

(٣) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٣٩٨/١ ،مؤسسة الأندلس ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ٣٠١/٤

قال الله تعالى : " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"(١)

وقد سخّر الله سبحانه وتعالى للإنسان ما في السموات والأرض جميعا فالكل يجري في مصالحه ويسعى في خدمته ويعمل لأجله

قال الله عز وجل : " اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخّرَ لَكُمُ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخّرَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ"(٢)

وقال سبحانه : " أَلَمْ تَرَوْاْ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"(٣)

وقال سبحانه : " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"(٤)

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله : وهذا شامل لأجرام السموات والأرض ولما أودع الله فيها من الشمس والقمر والكواكب وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم(٥)

---

(١) سورة البقرة آية ٣٤

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٣٢-٣٤

(٣) سورة لقمان آية ٢٠

(٤) سورة الجاثية آية ١٣

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢١/٧

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه[١]

٨- مواجهة المصائب بالصبر

من سنن الله تعالى في الحياة الابتلاء بالضراء كما يبتلى بالسراء

قال الله تعالى : " وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ"[٢]

أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم تارة أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط [٣]

والربانيون كغيرهم من خلق الله تعالى تصيبهم الشدائد والمصائب بَيْد أنهم يواجهونها بتوفيق من الله تعالى بما يسهلها عندهم ويحولها نعمة من نعم الله تعالى عليهم قال الله تعالى : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشيء مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ"[٤]

أي أن الصابرين تسلّوا بقولهم هذا فهم يقرون بأنهم مملوكون لله مدبرون تحت أمره وتصريفه فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شئ فإذا ابتلانا بشئ فلا اعتراض عليه فهو الحكيم الرحيم أرحم بعبده من نفسه فيوجب لهم ذلك الرضا عن الله والشكر له على

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ٩٣٨/١ ، مؤسسة الأندلس

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٥

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٥٠٧/٢ ـ ٥٠٨

(٤) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧

تدبيره لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك كما أننا إليه راجعون يوم القيامة فمجاز كل بعمله ، فكون العبد لله وراجعا إليه من أقوى أسباب الصبر وأولئك الموصوفون بالصبر لهم الثناء من الله عليهم والرحمة العظيمة وأولئك هم المهتدون الذين عرفوا الحق[١]

وقد كان رسول الهدى محمد ﷺ أطيب الناس نفسا وأحسنهم خلقا وأرضاهم عن ربه تعالى مع ما كان يواجهه من مصائب فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك[٢] فقلت : يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا . قال : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم . قلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : أجل ذلك كذلك . ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحطُّ الشجرة ورقها"[٣]

وعندما أرسلت إحدى بناته السيدة زينب – رضي الله عنها – إليه صلوات الله وسلامه عليه قائلة : إن ابني قد احتضر فاشهدنا أرسل يقرئ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب"[٤]

ومن ألطف قصص الصبر والاحتساب عند الصحابة ما وراه مسلم : مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تتصنع قبل ذلك فوقع بها

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ١٤٣/١-١٤٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ابن سعدي ١٨١/١-١٨٢

(٢) الوعك : الحمى [فتح الباري لابن حجر ١١١/١٠]

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٤٥/١٤ ، ح ٥٦٤٨ ،كتاب الجمعة ،باب ٣٨٣٦

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٤٥٢/٦ ، ح٥٦٤٨ ، كتاب المرضى باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل

فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قال : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . فقالت : فاحتسب ابنك ... الحديث"[١]

ومن قصص الصبر والرضا عند التابعين قصة عروة بن الزبير –رحمه الله تعالى–

فقد وقعت في رجله الآكلة فدعوا له بالطبيب فقالوا : نسقيك شرابا يزول فيه عقلك فأبى فوضع المنشار على ركبته اليسرى فما سمع الحاضرون له حسا فلما قطعت جعل يقول : لئن أخذت لقد أبقيت ولئن ابتليت لقد عافيت وما ترك جزءه بالقرآن تلك الليلة[٢]

وفي وقت قريب من هذه الحادثة مات أحد أولاده فأتاه رجل يعزيه فقال : إن كنت تعزيني برجلي فقد احتسبتها . قال : بل أعزيك بمحمد ابنك قال : وماله فأخبره بوفاته فقال : اللهم أخذت عضوا وتركت أعضاء وأخذت ابنا وتركت أبناء[٣]

ويقول الإمام ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمهما الله تعالى – : "وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا وأشرحهم صدرا وأقواهم قلبا وأسرّهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه"[٤]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٥/٧ ، ح٦٤٧٦ ، كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي طلحة

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٣٠/٤

(٣) المصدر السابق ٤٣٣/٤

(٤) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٤٠

فالربانيون يواجهون ما يواجههم من الصعاب والمصائب لكن ارتباطهم بالله عز وجل وحسن ظنهم به ورجاء ما عنده يهون عليهم مصائبهم ويلبسهم حلة الصبر والرضا.

٩- تيسير الرزق

من الثمرات العظيمة التي يعطيها ربنا سبحانه وتعالى للربانيين تيسير الرزق قال الله عز وجل : "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"[١] أي يسوق الله عز وجل الرزق له من وجه لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه[٢]

إن إبراز هذه الثمرة مهم جداً لاهتمام الناس بهذا الأمر "فمسألة الرزق وتجاوز الحد في الحرص على المصالح الدنيوية من أكبر ما يصد الناس عن طريق الله"[٣]

فإذا علم الإنسان أن التقوى من أسباب فتح الرزق كان ذلك سببا في تمسكه بها

يقول الله عز وجل في بيان أن الإيمان والتقوى سبب للبركات : " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله : "ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا ، صدقته الأعمال واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرم الله

---

(١) سورة الطلاق آية ٢ ، ٣

(٢) فتح القدير ، الشوكاني ٢٤١/٥ -٢٤٢

(٣) أثر الإيمان في تحصين الأمة الاسلامية ضد الأفكار الهدامة ، د . عبد الله الجربوع ٢٦٢/١

لفتح عليهم بركات من السماء والأرض فأرسل السماء عليهم مدرارا وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء ولا تعب ولا كد ولا نصب"(١)

وقال الله عز وجل حكاية عن هود – عليه الصلاة والسلام – " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ"(٢)

وقال سبحانه حكاية عن نوح – عليه الصلاة والسلام –

" فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السّماء عليْكُمْ مِدْرارا ويُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وبنِين ويجْعلْ لكُمْ جنّاتٍ ويجْعلْ لكُمْ أنْهارا"(٣)

ولقد كان المسلمون يستسقون بدعاء الصالحين لاستنزال المطر الذي به رزقهم فمن ذلك طلب أحد الأعراب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم بالغيث والسقيا فإن المال هلك وجاع العيال وهلك الكراع والشاء فدعا الرسول ﷺ فأغاثهم الله تعالى قبل أن ينزل ﷺ عن منبره حتى تحدر المطر على لحيته وكما توسل معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق بدعاء يزيد ابن الأسود الجرشي فهبت الريح وسقوا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم(٤)

---

(١) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ٦٧/٣

(٢) سورة هود آية ٥٢

(٣) سورة نوح الآيات ١٠ -١٢

(٤) الحافظ ابن عساكر في تاريخه ١٥١/١٨ بسند صحيح قال الألباني وقال أيضا : وعزاه الحافظ العسقلاني في الإصابة ٦٣٤/٣ لأبي زرعة الدمشقي ويعقوب بن سفيان في تاريخهما بسند صحيح [التوسل ، الألباني ص٤٥]

١٠- وضع القبول للرباني في الأرض

من النعم التي يعجلها الله – عز وجل – لعبده الرباني وضع القبول لـــه فـــي الأرض فيحبه عباد الله المؤمنون ويودونه

قال الله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا"(١)

إي سيحدث لهم في قلوب أوليائه وأهل السماء والأرض محبة ومودة من غير تعرض منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح(٢)

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : "إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقـــال : يـــا جبريل إني أحب فلانا فأحبه قال : فيحبه جبريل قال : ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض وإن الله إذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلانا فأبغضـــه قـــال : فيبغضـــه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال : فيبغضـــه أهـــل السماء ، ثم توضع له البغضاء في الارض"(٣)

قال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليـــه حتـــى يرزقه مودتهم ورحمتهم"(٤)

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله : "فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين"(١)

---

(١) سورة مريم آية ٩٦

(٢)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الشنقيطي ٣٩٦/٤ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، الرياض

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٨ ، ح٦٨٧٣ ، كتاب البر والصله ، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ، الصابوني ٤٦٨/٢ ، الإيمان ، أحمد البيانوني ص٣٥٤ مكتبة الهدى ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م ، حلب

ولو تأمل الإنسان لرأى أشخاصا تحبهم الناس وتصلي عليهم وتترضى عنهم وتترحم عليهم من الأنبياء والصحابة والصالحين مع أنهم لم يروهم ومن ذلك قال سهيل بن أبي صالح : كنت مع أبي غداة عرفة فوقفنا لننظر لعمر بن عبد العزيز وهو أمير الحاج فقلت : يا أبتاه والله إني لأرى الله يحب عمر . قال : لم ؟ قلت : لما أراه دخل له في قلوب الناس من المودة [٢]

١١- إيجاد مجتمع الخير

إن الربانية سبب لظهور مجتمع الخير والسعادة والفلاح الذي تسوده الأخلاق الفاضلة والسلوكيات الحسنة ولعلنا نذكر المجتمع الإسلامي الأول وكيف تآلف أهله من الأوس والخزرج بفضل من الله ونعمة بعد شدة عداوة وعظم تنافر قال الله تعالى " وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ"[٣]

وبجانب تآلف الأنصار من الأوس والخزرج تآخى الصحابة من المهاجرين والأنصار وظهرت الأخوة الإيمانية في أروع صورها على حد لم يعرف التاريخ له مثلا فقد عرض الأنصار على رسول الله ﷺ أن يقسم بينهم وبين المهاجرين النخل فأبي الرسول ﷺ وطلب من الأنصار أن يكفونهم المؤونة ويشركونهم في الثمر فقال الأنصار سمعنا وأطعنا[٤]

---

(١) الوابل الصيب ، ابن القيم ص١٤١

(٢) سير أعلام النبلاء ، محمد الذهبي ١١٩/٥ ، أشرف على التحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١١ ، ١٤٢٢هـ ، بيروت

(٣) سورة الأنفال آية ٦٣

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري ١١٣/٧ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ٣ إخاء النبي – صلى الله عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار حديث رقم٣٧٨٢

وآخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع فقال سعد: إني أكثر الأنصار مالا فأقسم مالي بيني وبينك شطرين ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو ...[1]

إنهما موقفان يستوقفان الإنسان ليتأملهما وينظر بعين إجلال لصحابيهما . وإن إعجابنا بمواساة سعد ﷺ وكرمه لا ينسينا أن نفخر بنبل عبد الرحمن ﷺ وعفته واعتماده على نفسه في الكسب

وكان من مقتضيات الأخوة الإيمانية التوارث فيما بينهم في أول الإسلام حتى نزل قوله تعالى "وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[2] [3]

وكانت الأخلاق الفاضلة سائدة في المجتمع الإسلامي الأول لعمق الربانية والإيمان فيهم فمن ذلك الإيثار قال الله تعالى "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"[4] وهذه نزلت في الأنصار رضي الله عنهم [1]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيح المطبوع مع فتح الباري ١١٢/٧ ، كتاب مناقب الأنصار باب ٣ إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حديث رقم ٣٧٨٠ ، ٢٧٨١

(٢) سورة الأنفال آية ٧٥

(٣) مختصر تفسير أبن كثير ، الصابوني ١٢٢/٢

(٤) سورة الحشر آية ٩

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ "أن رجلا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ : من يَضُمُّ – أو يضِيف – هذا فقال رجل من الأنصار : أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت : ما عندنا إلا قوت صبياني . فقال: هيِّئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا يُريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : ضحك الله الليلة – أو عَجِبَ – من فعالكما فأنزل الله "وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(٢) (٣)

ومن صفاتهم المحبة والتزوار في الله فمن ذلك أن عبد الله بن مسعود ﷺ سأل أصحابه – رحمهم الله – : هل تجالسون ؟ قالوا : ليس نترك ذاك . قال فهل تزاورون ؟ قالوا : نعم يا أبا عبد الرحمن إن الرجل ليفقد أخاه فيمشي في طلبه إلى أقصى الكوفة حتى يلقاه . قال : فإنكم لن تزالوا بخير ما فعلتم ذلك (٤)

ومن صفاتهم التواضع والرحمة ومن نماذج ذلك أن الأحنف بن قيس رحمه الله عين على خراسان واليا فلما كان في الطريق إليها أصابته جنابة في ليلة باردة فلم يوقظ

---

(١)فتح القدير ، الشوكاني ٢٠١/٥

(٢) سورة الحشر آية ٩

(٣) صحيح البخاري ٣٦٥/٩ ،ح ٣٧٩٨ ، كتاب الجمعة ، باب الطيب للجمعة

(٤) سنن الدارمي ١٥٨/١ ، رقم ٦٢٠ ، المقدمة ، باب مذاكرة العلم

أحدا من غلمانه ولا جنده وخرج يريد الماء فأتى على شوك وشجر حتى سالت قــدماه دما فوجد الثلج فكسره واغتسل[١]

كان من السهولة بمكان أن يوقظ أحد الجند فيفرح بخدمة أميره فيحضــر لــه المــاء ويسخنه لكنه لم يفعل ذلك بل لم يوقظ أحدا من غلمانه شفقة عليهم من تنغــيص لــذة نومهم وحبا في التواضع لله عز وجل

ومن صفاتهم الأمانة ومن ذلك قول علي بن أبي طالب عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – "إنك عففت فعففَّت الرعية" [٢]

ولما قدمت الأخماس على عمر بن الخطاب ﷺ ورأى فيها سلاح كسرى وثيابه وحُلّيه وسيف النعمان بن المنذر قال : "إن أقواما أدوا هذا لذووا أمانه"[٣]

وأصاب خارجة بن الصلت في الغزو ناقة من ذهب أو فضة موشحة[٤] بالدر والياقوت مثل الجفرة[٥] وعليها رجل من ذهب موشح كذلك فأداها إلى المسؤولين عن الغنائم [٦]

---

(١) الطبقات الكبرى ، ابن سعدي ٩٤/٧

(٢) ابن الجوزي ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص٩١ ، تحقيق زينب القاروط ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، ١٤٠٢ هـ ، بيروت

(٣) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ٣٦٠/٢

(٤) الوشاح شئ ينسج من أديم عريض ويُرَصّع بالجواهر ، وتشد المرأة بين عاتقها وكشحها وهو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وربما قالوا : توشح الرجل بثوبه وسيفه [مختار الصحاح ، الرازي ص٥٧٢ ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠١هـ ،بيروت]

(٥) الجفرة : الجفر من أولاد الشاء إذا عظم واستكرش . قال ابن الأعرابي : "إنما ذلك لأربعة أشهر أو خمسة من يوم ولد : [ابن منظور ، لسان العرب ٣٠٤/٢ ، دار صادر بيروت]

(٦) تاريخ الطبري ٢٧/٤-٢٨، وانظر نحوه في الأخبار الطوال للدينوري ص١٢٨ ولمزيد من النماذج أنظر تاريخ الطبري ١٨/٤-١٩ والكامل في التاريخ ٣٦٠/٢ والطبقات الكبرى لأبن سعد ٢٧/٧

كما نجدهم أعف الناس عن أموال الرعية مع قدرتهم عليها فهذا عمر بن عبد العزيز كان تسرج عليه الشمعة ما كان في حوائج المسلمين من بيت المال فإذا فرغ أطفأها وأسرج عليه سراجه[١]

ومن صفاتهم – رضي الله عنهم – العدل حتى مع أعدائهم ومن ذلك قصة علي بن أبي طالبﷺ وهو خليفة عندما وجد درعه مع يهودي ورفض تسليمها له زاعما أنها له ، وكان بإمكان علي ﷺ وهو صاحب السلطان أن ينتزعها بالقوة ، لكنه لم يفعل ذلك ولم يخطر بباله وإنما رفعه إلى القاضي شريح ويحكم القاضي لليهودي لعدم قدرة علي ﷺ على إقامة البينة ، وعند ذلك أعلن اليهودي إسلامه قائلا : "أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه . وقاضيه يقضي عليه ، أشهد أن هذا الدين على الحق وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقطت منك ليلا"[٢]

إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي تسود المجتمع كلما قويت فيه الربانية وتغلغلت إلى قلوب أهله وهناك يكون المجتمع المثالي الذي تسوده المحبة والأخوة والعدل والإيثار والتعاون والتضحية وغير ذلك من السجايا الحسنة يحلم كل إنسان أن يعيش فيه ولكي تحس بقيمة الإيمان والدين الذي جاء به محمد ﷺ فلعلك تقرأ عن غيره من الأديان التي تصادم العقل وتمجها الفطرة[٣]

---

(١) سير أعلام النبلاء ، محمد الذهبي ١٣٦/٥

(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ٢٠١/٣ ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، ص٤ ،١٤٠٣هـ ، بيروت . القاضي وكيع ، أخبار القضاة ٢٠٠/٢ ، عالم الكتب بيروت ، وانظر أمثلة أخرى في : الدعوة الإسلامية إلى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، أحمد الغيث ص٣٨٢ وما بعدها ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، ،أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٤/٦ ، دار صادر ، بيروت . وتاريخ الطبري ٣٦٦/٣ ، تحقيق : محمد إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت . والبداية والنهاية لابن كثير ٣٤٧/٦ ، مكتبة المعارف ، ط٤ ،١٤٠٢هـ، بيروت

(٣)أنظر على سبيل المثال ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ، وبعض أسباب الإلحاد وأثر الإيمان بالله تعالى للدكتور عبد الحليم أحمدي ص٣٢ وما بعدها

وإذا كان الإيمان بالله عز وجل يغرس القيم الخلقية العالية عند الأفراد لبنـــاء مجتمـــع الخير فإنه في الوقت ذاته يسعى إلى هذا الهدف عن طريق جعـــل الأفـــراد يجتنبـــون الجرائم والرذائل أو على الأقل يقلل من وجودها في المجتمع بامتثال أمر الشرع فـــي ذلك [١]

---

(١) بعض أسباب الإلحاد وأثر الإيمان بالله تعالى ، د. عبد الحليم أحمدي ص٥٠